

الوجه الحبيبي لمقابر مزارع



مقابر بني يزقن فموجاً

تأليف الأستاذ

سفر بن بكير الحج سعيد

1431 هـ / 2010 م

1662

16

الوجه الحلي لمقابر مزارب

مقابر بنى يزقن فموندجا

تأليف الأستاذ

يوسف بن بكير الحج سعيدي

1431 هـ / 2010 م

طبع: المطبعة العربية 11 نهج طالبي أحمد - غرداية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَقَرَّةٌ

الحمد لله الذي خلق الموت والحياة ليلبونا أيّنا أحسن عملاً، وهو العزيز الغفور. أشهد أن لا إله إلا هو الحي القيوم، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير. وأشهد أن محمداً ﷺ عبده ورسوله. روي عنه قوله: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له». تحتاج البشرية لصيانة جثث موتاهما حاجتها لإسكان أحيائها. لذلك، فإن لكل بلد من بلدان العالم مقابر تتحد وظيفتها، مهما اختلفت الملل والنحل، ومهما تعاقبت الأزمنة والحضارات. إلا أن للمقابر المزابية وجهًا خاصًا يشعرك بالتحام الأحياء والأموات، حيث، إضافة إلى زيارة الأحياء للمقابر التي هي ظاهرة عالمية، تجدنا قد أقمنا فيها صروحاً لتجمعات سنوية، خدمة للتكافل والتعاون بين الأحياء، تنفيذاً لوصايا الأموات. فالأمر إذن وحدة اجتماعية لا تفتقر بالموت ولكنها تقوى وتشتدّ به. فأنت، أخي القارئ، ستطلع على الوجه الحي للمقابر المزابية عمومًا، عبر هذا البحث الذي خصّصته للمقابر في بلدة بني يزقن، نمودجا لبقية المدن المزابية.

إن مقابرنا جزء من تراثنا العريق، بشقيّه المادّي والمعنوي، باعتبارها مؤسسات حيّة تؤدي خدمات جليلة للأحياء. لذلك فهي تستحقّ منا الاهتمام

طبع: المطبعة العربية 11 نهج طالبني أحمد - غرداية

الهاتف / فاكس : 88. 36. 53 (029)

المنطقة الصناعية : 87. 34. 34 (029)

الإيداع القانوني رقم 54 / 2010

ردمك: 1 - 30-978-9947-845 I.S.B.N:

حقوق الطبع محفوظة

1431هـ / 2010م

اللائق بها، بحثا ودراسة وتعريفا. يحتوي هذا البحث على باين اثنين، تناولتُ في أحدهما ما يتعلّق بالمقابر بصفاتها فضاء لدفن موتانا بعد تجهيزهم والصّلاة عليهم، وخصّصتُ الباب الثاني للتجمّعات الدينية والاجتماعية التي تشرف عليها حلقة العزابة سنويا في بناءات معدّة لهذا الغرض.

وإنّك ستجد دراسة معمارية لهذه الفضاءات، إلى جانب الوظائف التي أدّتها أو لا تزال تؤدّيها، وما طرأ لموسم المقابر من تحولات وتحديثات أملتها الظروف وتقبلتها النفوس.

تطّرتُ، في ثنایا هذه الدراسة، إلى مسائل فقهية ذات علاقة بالموضوع، إرشادا للحائر، وتنويرا للمستبصر، ودعوة للخير. فليس هذا البحث بمجرد حديث عن الموت والأموات، بل هو توجيه للأحياء أن يستعدّوا لما بعد الموت، وذلك بأداء حقوق موتانا، وتوطيد العلاقة بين أحيائنا.

أدرجتُ في ثنایا البحث عددا من الكلمات المزابية مترجمة إلى العربية، تذكيرا بما لمن دأب على استعمالها قديما ثمّ أعرض عنها، وتعريفا بما للأجيال الصاعدة، إسهاما منّي في الحفاظ على التراث المزابي، وإحياء لما اندثر منها. اللهمّ أعطنا خير الدنيا ونعيم الآخرة، واكف عنا شرّ الدنيا وعذاب الآخرة، واسترنا في الدنيا وارحمنا في الآخرة، يا أرحم الرّاحمين.

بني يزقن، يوم الإثنين 17 رمضان 1430هـ

الموافق: 07 سبتمبر 2009م

نبذة عن المقابر الأولى:

حول قصر بني يزقن ثلاث مقابر قديمة، لم يعد أحد يقصدها للدفن منذ قرون: أ- مقبرة مهجورة تقع ضمن أراضي آل يدّر شرق القصر، لا يزورها أحد. يقال إنّها كانت مقبرة لسكان قرية مُوركي المطلّة عليها من الشرق. ما تبقى منها موجود خلف المدرسة الابتدائية المنسوبة للشيخ أبي إسحاق إبراهيم طفيش. شطر من هذه المقبرة اكتشف في الجانب الشمالي للمدرسة عند حفر أسس أقسام ومرافق، أنجزت عام 1970. قامت عشائر آل يدّر بتسوير الجزء المتبقّي عام 1977.

غرب هذه المقبرة وغير بعيد عنها مقام الشيخ باعبد العظيم، موقع المصلّي الذي يحمل اسمه حاليا. من هو هذا الشيخ؟ وهل له علاقة بالمقبرة؟ لم أعر على معلومة بهذا الشأن.

ب- مقبرة تقع غرب القصر محاذية للطريق المؤدّي من الباب الغربي إلى حي أجوجن، تتصل غربا بمقبرة الشيخ بآسه، دون أن يكون الحدّ الفاصل بينهما واضحا. يُقال إنّ سكان البلد كانوا يدفنون موتاهم في هذه المقبرة العامة قبل أن تحدّد للعشائر المقابر الخاصة بها.

في سنة 1976، عندما لاحظ بعض الشباب اتّخاذ هذه المقبرة من طرف بعض رعاة المعز مرتعا لقطعانهم، بادروا بجمع التبرعات من المحسنين فسوّروها. ج- مقبرة الشيخ بالحاج المنسوبة إلى شيخ حلقة العزابة بالحاج محمد بن سعيد، الذي عاش في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، ودفن فيها. تقع أعلى الجبل إلى جوار برج بُوليلّا، غرب تافلاّت، النواة الأولى للبلدة. يوصل إليها عبر مدخل ثانوي للقصر يسمّى "خراجة الشيخ بالحاج".

تتألف هذه المقبرة من فضاءين يضمّان حوالي ثمانين قبراً مبنياً على الصخر، قامت عشيرة آل خالد بتسويرهما. من بين من دفن في هذه المقبرة شيخ الحلقة عمّي عيسى الذي خرج رفقة الإمام والمؤذن لمكافحة الجراد وحدهم، وقد تقاعس غيرهم عن الخروج معهم، فاغتالهم العدو. قبور هؤلاء الشهداء موجودة على يسار القاصد إلى الصحن العلوي التابع لهذه المقبرة¹.

الباب الأول: المقابر الحالية:

أ- طبيعتها:

هي وقف، حبّسها أهلها لدفن الأموات. يقول الشيخ الحاج عيسى بن الحاج سعيد مصري، قاضي محكمة بني يزقن، في مراسلة للحاكم العسكري بغرداية، مؤرخة يوم 30 مارس 1903: «فمن ظنّ أن يأخذ منها طرفاً للغرس أو البناء أو البيع فقد أخطأ في ظنّه، لأنّ الأموات لا يهبون أرضهم للأحياء، إذ هي مشاع حبس عليهم للقبر لا غير».

ب- موقعها وحدودها:

عددها أربع، ثلاث منها متجاورة والرابعة منفصلة. أمّا المتجاورة فهي من الشرق إلى الغرب: مقبرة الشيخ باحمد، مقبرة الشيخ حمّو أو يوسف، مقبرة الشيخ بايزيد (آت إيزيد بالمزابية). تقع هذه السلسلة أسفل الجبل القبلي للبلد، ويفصل بين الأولى والثانية وبين القصر مجرى وادي نّيسا.

نظراً لضيق مساحة مقبرة الشيخ باحمد، فإنّ أصحابها لجؤوا منذ عقود إلى التوسع نحو القبلة، وذلك بإحداث مساحات تعانق سفح التل، حيث يرفعون جداراً ثمّ يملؤون ما بينه وبين التل بالتراب، فيحصلون على رقعة صالحة للدفن.

الحدّ الفاصل بين مقبرة الشيخ باحمد ومقبرة الشيخ حمّو أو يوسف هو ساقية باحمان.

مدخل مقبرة آت إيزيد كان سابقاً من الناحية الجوفية لها عبر حي بالو يدرّ، مروراً أمام غرفة تجهيز الأموات المعروفة بفطّمّاك أنّ باحيو المهجورة حالياً.

قامت عشيرة آل خالد بتسوير مقبرة الشيخ بايزيد عام 1978.

المقبرة المنفصلة هي مقبرة الشيخ باسّة، وهي امتداد للمقبرة القديمة التي ذكرناها آنفاً غرب البلد. هذه المقبرة تمتاز بارتفاع أرضيتها عمّا يحيط بها. يفصل بينها وبين الجبل أملاك خاصّة. تبرع أهلها بشريط منها لتوسيع طريق أوجوجن عام 1987، وبنوا غرفة جديدة لتجهيز الأموات عوضاً عن القديمة التي كانت بجوار البئر.

ج- نسبتها:

كلّ واحدة من هذه المقابر الأربع تنسب إلى أحد مشايخ البلدة المدفون فيها.

- مقبرة الشيخ باحمد تنسب إلى الشيخ باحمد بن عبد العزيز. ذكر

القطب طفّيش أنّه من علماء القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي.

- مقبرة الشيخ حمّو أو يوسف: تنسب إلى الشيخ حمّو بن يوسف الذي

كان كاتباً للمجلس الأعلى لمزاب، وقد حرّر بعض اتفاقاته المبرمة عامي: 807 و811هـ / 1405 و1409م.

- مقبرة آت إيزيد: تنسب إلى الشيخ القاضي بايزيد. يُقال إنّه توفي عام

645هـ / 1247م.

- مقبرة الشيخ باسّة: تنسب إلى الشيخ بابا موسى بن الفضل أحد

أعلام البلد في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي.

د- أصحابها:

لا نعرف على أيّ أساس تمّ توزيع سكان البلدة على المقابر الأربع، حيث نلاحظ اثنتين منها خاصّتين بعشيرتين من عرش آل عَنان، بينما يشترك عرشان في استغلال كلّ من المقبرتين الأخرين.

اعتمدتُ فيما يلي تشكيلة البلدة السابقة لعام 1891 والمتضمنة خمس عشرة عشيرة، من بينها عشيرة آل وينتن التي انقسمت عام 1916 إلى ثلاث فرق: آل أيوب أو نوح، آل باباعلي، آل دَادِي أن باحمد.

- يدفن في مقبرة الشيخ باحمد:

من عرش آل موسى: عشيرة آل بُوهُون أو ابراهيم كاملة.

آل عَدُون أو ابراهيم كاملة.

عشيرة آل دُوْدُو كاملة.

فرقة آل باباعلي (ما عدا عائلات: حفّار، هَرّاده، مَرّحرح).

عائلة لَعلي من فرقة دَادِي أن باحمد.

عائلة داود من عشيرة آل باكلي أو ابراهيم.

من عرش آل عَنان: عشيرة آل باحمان كاملة.

عشيرة آل باحمد كاملة.

عشيرة آل عَدُون أو عيسى كاملة.

حاليا عشيرة آل باحمان وعشيرة آل عدون أو عيسى يدفنون موتاهم في

الجناح الجنوبي من المقبرة، ومعظم بقية العائلات في الجناح الشرقي منها.

من بين الأعلام المدفونين في مقبرة الشيخ باحمد، الشيخ عبد الله بن

عيسى (ت1706)، الشيخ إبراهيم بن بيهمان (ت1817)، القطب طفيش

(ت1914)، القاضي عيسى بن الحاج سعيد مصري (ت1921)، الشيخ الحاج صالح لَعلي (ت1928)، القاضي محمّد بن إبراهيم بُوفَارَة (ت1941)، الشاعر مفدي زكرياء (ت1977).

- يدفن في مقبرة الشيخ حمو أو يوسف:

عرش آل يَدَّر كاملا،

من عرش آل موسى: عشيرة آل باكلي أو ابراهيم ما عدا عائلة داود.

فرقة آل أيوب أو نوح كاملة.

فرقة آل دَادِي أن باحمد ما عدا عائلة لَعلي.

عائلتا حفّار وهرّادة.

من عرش آل عَنان: عائلتا عبد الرحمن ومقنين.

لكلّ عشيرة في هذه المقبرة حيّها الخاص بها. وهذه الأحياء تشكّل مقاطع لدائرة، يمكن أن نرتبها وفق دوران عقارب الساعة، انطلاقا من الطريق المؤدّي إلى الصحن التابع لهذه المقبرة: آل بوهريرة، آل بَاسَة أو صالح، آل أيوب أو نوح، آل قاسم أو عمر، آل بو يحيى، آل إسماعيل، آل دَادِي أن باحمد، آل باكلي أو ابراهيم.

الملاحظ عدم احترام بعض العائلات لهذا التقسيم، ومزاحمة آل باكلي أو ابراهيم وآل دَادِي أن باحمد في حيّهما، اختزالا للمسافة، ومراعاة للجانب الأمني للزائرات.

من بين الأعلام المدفونين في مقبرة الشيخ حمو أو يوسف، الشيخ الحاج

يوسف بن حمو بن عَدُون (ت1836)، الشيخ إبراهيم بن بكير حفّار (ت1954)،

إبراهيم بن بالحاج حجوط (ت1962)، الشيخ محمّد بن يوسف بابانو (ت1988).

- مقبرة آت إزید خاصة بعشيرة آل خالد، باستثناء عائلي مقنين وعبد الرحمن.

من بين الأعلام المدفونين في مقبرة الشيخ بايزيد، الشيخ إبراهيم بن بانوح مطياز (ت 1981).

- مقبرة الشيخ باسمة خاصة بعشيرة آل الفضل.
من بين الأعلام المدفونين في مقبرة الشيخ باسمة، الشيخ عبد العزيز بن يوسف (ق. 160م)، الشيخ عمي يحي أبو زكرياء يحي بن صالح (ت 1787).

هذا هو التقسيم الجاري به العمل عموماً. إلا أن هناك حالات استثنائية، أغلبها يقصد فيها تلبية رغبة متوفى أو وصى بدفنه في مقبرة غير مقبرة أجداده. يطبق هذا التقسيم على الذكور وعلى الإناث قبل زواجهن. أما المرأة المتزوجة فهي تابعة لمقبرة زوجها، خاصة إذا خلفت منه بنين.

في حالة سيلان وادي تيسا، وقبل إنجاز قنطرة عليه، كان يتعدى نقل الميت إلى إحدى المقابر الثلاث المتجاورة، فيحمل إلى مقبرة الشيخ باسمة ليدفن فيها. يتكفل أصحاب كل مقبرة بخدمات تهيئة الأرضية للدفن، وجلب الصفائح الحجرية لسد القبور (تسمى إمدان بالمزابية، جمع مدون)، وتوجيه مياه المطر لوقاية القبور من انجراف التربة، وترميم فضاءات التجمع الآتي الحديث عنها.

هـ- تجهيز الأموات:

إذا تحققت الوفاة لزم على من حضر تغميض عيني الميت وغلق فمه، والتخفيف من ثيابه، وتسوية يديه ورجليه، وتغطيته ستراً له عن الأعين. قديماً، كان الميت داخل القصر يجهز في المنزل الذي توفي فيه، في الغرفة المعروفة باسم "تيزفري"، وهي غرفة ذات مدخل عريض بدون باب. يؤتى

بالمغسل وبالنعش من سقيفة الأنعاش التابعة للمسجد العتيق، ويُعطى لحاملهما ما نصت عليه وصية الهالك من الأجر.

يُحضّر إبريق الماء وكمية من التراب لامتنعاص الماء عند الغسل، وتثبت جريدة نخل (تأغداً بالمزابية) على الوتدين المرزوزين يمين مدخل تيزفري ويساره، يُعلق عليها حائك لستر عملية التجهيز عن أنظار المعزيات الجالسات وسط الدار. ينتظر الرجال تشييع الجنازة خارج المنزل في الشارع.

إذا كانت تيزفري ضيقة، تؤمر النساء بالصعود إلى الطابق العلوي، ويتم تجهيز الميت وسط الدار.

يتكفل بتجهيز الرجال والصبيان البالغين أو المشرفين على البلوغ خمسة أعضاء من حلقة العزابة، يعرفون باسم غسلة الأموات (إمسردن)، وتكفل بتجهيز النساء والفتيات والصبيان ما دون السابعة من عمرهم خمس نساء تعينهن حلقة العزابة، ويعرفن باسم الغاسلات (تمسردن).

أما من مات خارج القصر، فكان العرف لا يسمح لذويه بإدخاله إلى البلد، بل يتم تجهيزه في محل معد لذلك، قرب مقبرة آت إزید يدعى فطماك أن باحيو في حي بالو يدر، أو في محل مماثل في مقبرة الشيخ باسمة مجاور للبشر. في مصلى الواحة القديم الموجود في حي الشعبة على "زقاق الراعي"، والذي أنشئ عام 1934، عدد من الأنعاش، لحمل الموتى من الواحة إلى إحدى الغرفتين المذكورتين.

أما الآن، فكل من توفي داخل القصر أو خارجه يحمل إلى غرفة التجهيز المقامة عند مدخل المسجد الكبير، بطالمت، والمعروفة كذلك باسم "فطماك أن باحيو" هذه الغرفة بنيت في مارس 1977، بعد إزالة صهريج ماء الشرب الذي بناه القاضي الحاج سعيد بن الحاج عيسى مصري عام 1947 لجلب الماء

إلى البلد بالقنوات من إحدى أيار الواحة، ثم وقع تحويل الغرفة غربا ببضعة أمتار عند تحديد موقع مرافق المسجد الكبير في التسعينات. يتولّى أكبر الغسلة مباشرة عملية الغسل، ويساعده الثاني بمسك الإبريق، ويمسك اثنان منهم الحائك لتغطية الجثمان أثناء العملية، ويشتغل الخامس بتمزيق الكفن وإعداده قطعاً ثلاثاً، تكون اثنتان منها بمنزلة إزار وسروال، ويلفّ في الثالثة بصفة شاملة، ويشدّ أطرافه بسلاء النخل، ويشدّ بخيط بأعلاه وأسفله². وتنتهي العملية بالتبخير والتطيب.

بعد إتمام تكفين الميت، يوسد له في النعش ويوضع عليه ويستتر بحائك. والمرأة يقوم بنقلها من المغسل إلى النعش - بعد انصراف الغاسلات - محارمها. وإن احتيج إلى غيرهم فليكن أمينا ثقة.

عند وفاة مواطن في براءة المسلمين يحجم العزابة أو الغاسلات عن تجهيزه. ويعيّنون لأوليائه جماعة من غير المنظور إليهم للتكفل به. وعندما يكون الميت عزاباً أو رديفاً للعزابة، فإن أعضاء الحلقة كلّهم يشهدون غسله وتجهيزه، ثم يستأثرون بحمله ودفنه، بحضور أقرب الأقربين إليه فقط.

و- الطريق إلى المقابر:

يصل الباب الشرقي بالباب الغربي لبني يزقن شارعان رئيسان. أولهما ينطلق من سوق صالح أو علي ويسلك شارع "السور"، حيث كانت نهاية عمران البلد في عهد بعيد، وثانيهما يمرّ أسفل الجبل عبر سوق "لالّة عشو"، ويُتّصف البلدة شطرين: الشطر المبني على سفح الجبل وعلى أعلاه، والشطر الجديد المقام على السهل.

عندما كان الميت يجهّز في منزله، يُقصد بجنازته عند الخروج به من المنزل بأخصر طريق إلى أحد الشارعين المذكورين. إذا كان مثواه الأخير في مقبرة الشيخ

باسّة أو مقبرة آتٍ إزِيدُ يُتّجه بها إلى الباب الغربي، علماً أنّ الباب الغربي السابق يقع على حوالي ستين متراً من الحالي. أمّا إذا كان دفنه سيتم بمقبرة حمو أو يوسف أو مقبرة باحمد، فإنّ الجنازة يُقصد بها شارع بُوذراعُو، حتّى إذا وصلتته سلكته لتخرج من الباب الثانوي للبلدة المسمّى "الرّثقت"، والذي كان موجوداً من قبل في بوذراعو على بُعد أربعين متراً من السور الحالي. وفي كلّ الأحوال فإنّ موكب الجنازة لا يسلك الشارع العريض الفاصل بين السور والديار (لخلاً بالمزاينة)، رغم ضيق الأزقة الداخلية. ولعلّ الغرض من هذا العرف إعلام أكبر عدد من المواطنين بوفاة شخص، حتّى يتسنى لهم المشاركة في التشييع.

يحمل النعش على الأكتاف عدد من المشييعين لا يتجاوز الستّة، ورأس الميت في المقدّمة. أمّا الأطفال الصغار فيُحملون على الأذرع، ورأسهم ممّا يلي يمين الحامل. يسير بقية المشييعين خلف الجنازة، مردّدين بصوت متخافت كلّهم خشوع، ذكراً معلوماً: "لا إله إلاّ الله، سبحانه الحيّ الذي لا يموت". يجب أن يتمّ التناوب على حمل النعش بطريقة عقلانية تحقّق الغاية منه، وهي التعاون على إيصال الميت إلى قبره. وليس من الدين ما نشاهده من التزاحم على النعش، تزاماً يفقد الموكب جلاله، ويسبّب التلاعب بالميت يميناً وشمالاً كأنّه دمية، بدعوى ابتغاء الأجر.

وعلى من رغب في الحمل أثناء الطريق أن يتقدّم أمام النعش يميناً أو يساراً، فيفسح له من في المقدّمة بتأخّره إلى الوسط. وعلى الذي كان في الوسط أن يتأخّر إلى مؤخّرة النعش، وعلى الذي كان في المؤخرة أن ينسحب تلقائياً. وهكذا بكلّ هدوء وانضباط.

ومن العوائد القديمة أنّه، إذا وقعت جنازة لمقتول ظلماً، يتبعها المشييعون بالنهي عن المنكر جهراً إلى مثواه الأخير، وذلك بترديدهم عبارة "نهى عن المنكر".

ز- الصَّلَاةُ عَلَى الْمَيِّتِ:

قديمًا، كانت الصَّلَاةُ عَلَى الْمَيِّتِ تقام قرب قبره، أين يُتْرَل من على أكتاف حامله، ورأسه نحو المغرب ورجلاه نحو المشرق. أمّا الآن، فإن المدفونين في إحدى المقابر الثلاث المتجاورة يصلّي عليهم في المسجد الكبير بطالْمَت، والمدفونين في مقبرة الشيخ باسَّه يصلّي عليهم في الجهة الجنوبية للمقبرة.

يتقدّم وليّ الميّت ويطلب من كبير الطلبة الحاضرين أن يؤمّ المشييعين. يقف الإمام إزاء رأس الميّت إذا كان ذكرًا، وإذا كان أنثى وقف وسطها. من المعلوم أنّ صلاة الجنازة أربع تكبيرات قيامًا، تقرأ الفاتحة بين التكبيرة الأولى والثانية، وبين الثانية والثالثة، ويدعو الجميع بعد التكبيرة الثالثة، ويسلمون بعد الرابعة والأخيرة.

والدعاء المأثور في صلاة الجنازة هو: "اللهمّ إنّ هذا عبدك بن عبدك بن أمتك، ونحن عبيدك بنو عبيدك بنو إمامك، توفيته وأبقيتنا بعده. اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنّا بعده، يا أرحم الراحمين". وإن كان الميّت متولّي زيد على ما مرّ: "اللهمّ أبدل له دارا خيرا من داره، وأهلا خيرا من أهله، وقرارا خيرا من قراره، وأصعد روحه في أرواح الصالحين".

هذا إذا كان الميّت ذكرًا، وإذا كان أنثى عدلت الصيغة. إذا فات المصلّي شيء من صلاة الجنازة خلف الإمام فلا قضاء عليه. وإذا فاتته الصَّلَاةُ مع الإمام، أمكنه الصَّلَاةُ عَلَى الْمَيِّتِ في انتظار تهيئة القبر، أو بعد الدفن، منفردًا أو في جماعة.

ح- الدفن:

منذ سنوات خلت، زوّدت كلّ مقبرة بغرفة لحفظ أدوات الحفر، بما حنفية موصولة بشبكة المياه.

يُحفر القبر للركبة على قياس الميّت طولًا وعرضًا بزيادة أربعة أصابع طولًا وثلاثة عرضًا، ويشقّ عندنا- من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي. لكن من المؤسف ما نلاحظه أحيانًا في الاتجاهات الخاطئة للقبور، فتجد بعضها محفورًا من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، وبعضها من الجنوب إلى الشمال، وأخرى من الشرق إلى الغرب، ممّا يترتب عليه فوضى وعدم التنسيق بين القبور.

باب القبر من ناحية المشرق، فمن أيّ ناحية أوتي بالميّت فإنّه يدار به حتّى يُدخل رأسه أولًا من ناحية المشرق لقبره. يتولّى إنزال الميّت في قبره ثلاثة من أوليائه، وأولى بإنزال المرأة محارمها، وإلاّ فالثقاة الأمانة.

ثمّسك السترة على القبر، ذكرًا كان الميّت أو أنثى، حتّى يواروه التراب. يُترلون أولًا رجله فجنبه فرأسه، ويضع الميّت على جنبه الأيمن مستقبلاً القبلة، وتُحلّ عقد رأسه ورجليه، ويكشف عن عينه اليمنى، ويرفق به في ذلك كلّه كأنّه حيّ. ويقول واضعه: "باسم الله" وإن كان من أهل الولاية يقول: "باسم الله وعلى ملّة رسول الله"، ثمّ يردّ التراب عليه ردًّا رقيقًا وهو يقول: "منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى".

عندما يمتلئ القبر بالتراب يُترع الستار، وينادي أحد المشاركين في الدفن بأعلى صوته: "فَتَحَات" ليشرع بقيّة المشييعين غير المعنّين بالدفن في تلاوة سورة يس. يسدّ القبر بصفائح من الأحجار على عرضه تصون الجثّة من غائلة السباع، ثمّ توارى تلك الصفائح بما فضل من الأتربة والحجارة التي أخرجت من القبر عند حفره. يزينون الكلّ بالتراب ويرشونه بالماء، وقد نصبوا له صفحات حجرية من قبل رأسه ومن قبل رجله: شاهدين من قبل الرأس وشاهد واحد من قبل الرجلين للذكر، والعكس للأنثى. ويزاد للمرأة الحامل شاهد آخر على وسط القبر.

أحيانا، طبيعة الأرض لا تسمح بحفرها بالوسائل التقليدية. عندئذ يبنى القبر بناء على سطح الأرض. عدد من هذه القبور موجود وسط مقبرة الشيخ باحمد وغرب أروقتها أسفل الجبل، لاحظت عليها بعض الانصداع وانكشاف الصفائح الحجرية التي تسدها، وذلك بفعل عوامل الطبيعة من رياح وأمطار وبرد.

بعد انتهاء عملية الدفن، يدور الإمام برجله اليمنى حول القبر، مبتدئا من عند رأسه، وهو يقرأ من أول سورة يس إلى قوله تعالى: "فأغشيناهم فهم لا يبصرون"، ثم يناديه باسمه مضافا إلى أمه ثلاث مرّات، ويقول له: "أذكر ما خرجت عليه من الدنيا: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وأنتك رضيت بالله ربّا وبالإسلام ديناً ومحمد نبيا وبالقرآن إماما"، وهو ما يعبر عنه بتلقيّن الشهادة.

ط- التحليق والصدقة:

وقت عملية الدفن، يجلس المشيّعون الذين لا يشاركون فيها، فيقرؤون سورة يس وخواتم القرآن، حتّى إذا ما التحق بالمجلس من كان تولّى الإقبار وانتهى الإمام من تلقيّن الشهادة، وقف الجميع في حلقة مفرغة -وقد أبعد منها من كان في براءة المسلمين- ودعا الإمام بدعاء معلوم، ثمّ يجهرّون بالتعزية الجماعية: "عظم الله أجركم".

بعض أولياء الأموات صاروا اليوم يفضلون الاكتفاء بهذه التعزية الجماعية وعدم إحراجهم بالاصطفاف قبل الانصراف، لمصافحتهم وتلقي التعازي الفردية.

بعد الدعاء الآنف الذّكر، يجلس الجميع وتوزّع عليهم الصدقات، تنفيذا لما أوصى به الهالك. وتفاديا للإسراف والتفاخر، فإن حلقة العزابة نصّت في

وثيقة قراراتها الصادرة يوم 27 رمضان 1419هـ / 15 جانفي 1999م، على أن تقتصر هذه الصدقات على التمر والخبز، وعلى أن لا يزداد على نصف الخبزة لكلّ حاضر، ومنعت صدقة الدراهم.

إذا حضر الجنازة من هو أهل للوعظ والإرشاد، وكان الوقت مناسباً، طلب منه أن يعظ الناس ويذكّرهم، مادامت نفوسهم متأثرة بجلال الموت.

ي- التعجيل بالدفن:

قديمًا، كان لا يترك من توفي قبل غروب الشمس ينتظر الدفن إلى صبيحة اليوم الموالي. بل كانوا يعجلون بتجهيزه ودفنه. وقد أدركتُ جنازة أقيمت بعد صلاة المغرب على ضوء المصاييح البترولية. وذلك، عملاً بما روي عن رسول الله ﷺ: «عجلّوا بدفن الميت، فإنّه لا ينبغي أن تحبس جيفة مسلم بين ظهراني أهله». وقال أيضا: «من مات بُكرة فلا يقبلن إلاّ في قبره، ومن مات عشية فلا يبيتن إلاّ في قبره».

أما الآن، فقد وقع التساهل كثيرا في هذا الباب، انتظارا لحضور ولد أو أخ مثلا، فزوّدت غرفة التجهيز لهذا الغرض بوسائل التجميد.

وبهذا الصدد، أشير إلى الطامة الكبرى التي هي نقل الأموات إلى مقابر مزاب من بلدان بها مقابر للمسلمين. وسيتملّ القائمون بهذا التصرف كلّ ما قد يصيب الميت من أذى ناتج عن حركة السفر وعن تعفن الجثة الناتج عن تأخير الدفن.

لقد زوّد أجدادنا معظم مدن الشمال بمقابر فسيحة، تنتظر من يشكر النعمة ويستغلّها بما حبّست من أجله، ويصونها من الضياع والزحف الذي يُنقصها من أطرافها. كفانا غفلة وسذاجة واعتقادات باطلة.

ك- القراءة على الأموات:

جرت العادة قديماً أن يقرأ عدد من الطلبة نصيباً من القرآن، في الليالي الأولى من الوفاة، عند قبر الميت. وتسمى تلك العادة: أَسْنَسِي أَنْيْلُ بالمِزَابِيَّة، وتعني العبارة: "التبئيت في القبر". كانت المدة تتراوح بين ثلاث ليال وست عشرة ليلة، حسبما أوصى به الهالك. بعد إتمام القراءة في المقبرة يتوجه هؤلاء الطلبة إلى دار العزاء لتناول عشائهم المنصوص عليه في الوصية، برّاً وسمّاً ولحماً. وقد أدركت ذلك في بنورة خلال شهر ديسمبر من عام 1981.

توقفت هذه العادة عندنا في بني يزقن خلال فترة الحرب التحريرية لأسباب أمنية، واقتصر على القراءة في دار العزاء ليلاً.

أمّا نهاراً، فمن العادة كذلك أن يوصي الهالك بالقراءة عند قبره مدة أربعين يوماً، وبقراءة نواوير القرآن أو سورة الأنعام كلّ يوم إثنين، وسور الكهف ويس والصفّات أو سورتي الكهف والمُلْك كلّ يوم خميس، مدة سنة إلى ثلاث سنوات.

ل- توسيم القبر:

يتمّ التوسيم يوم الدفن أو في اليوم الموالي. ويُتَحاشى يوم الأربعاء إذا كان المتوفى ذكراً، تشاوْماً وتطيراً ما أنزل الله به من سلطان.

يتوجه عدد من النساء الحاضرات في العزاء إلى المقبرة، لوضع علامة على القبر. هذه العلامة عادة ما تكون أحد الأواني التي كان يستعملها الميت في حياته: إبريق، صحن، كوب، ...

ورد ذكر توسيم القبر في أحد قرارات مسجد بني يزقن الصادرة عندما كان الشيخ عبد العزيز الثميني شيخاً للحلقة، علماً أنّه تولّى المشيخة عام 1201هـ/1786م وتوفي عام 1223هـ/1808م.

الزائر للأحياء القديمة في مقابرنا الأربع ليعجب ممّا يشاهده من الأواني الفخارية الموضوعة على القبور، ويتساءل عن حقيقة ما يرى. لقد عددت على أحدها حوالي عشرين إناءً! والملاحظ أنّ هذه الأواني معطوبة عمدًا، ممّا يضمن بقاءها حيث وضعت.

لكن المقبرتين القديمتين الموجودتين في حي يدرّ وغرب البلد خاليتان من هذه الأواني، ممّا يدلّ على أنّ هذه العادة استحدثت في عهد ما. ويبدو لي أنّ هذه الظاهرة عودة لطقوس جاهلية طفت على السطح في عهد طغى عليه الجهل والبدع. في مقبرة الشيخ بالحاج عدد محدود من القبور تحمل آنية فخارية واحدة.

من جهة أخرى، فإنّ بعض الناس يعمدون إلى بناء ما يسمى "تَمَسْجِدًا" عند رأس الميت، وهي عبارة عن ثلاث أحجار مصفحة تشكل محراباً صغيراً توضع فوقها حجرة رابعة، وقد يُمسك الكلّ بالتَمَسْجِمْت.

بالنسبة لشيوخ البلدة، فإنّهم يحظون بأربع شرفات على مقام من الشكل السابق وبحجم أكبر، فيجصّص المقام والقبر، ويُطلّى ويعاد طلاؤه من حين لآخر. أمّا إذا كان صاحب القبر شيخاً رسمياً لوادي مزاب فإنّه تضاف إلى مقامه شرفة خامسة تتوسط الشرفات الأربع.

تعرضت في السنوات الأخيرة بعض هذه الشرفات للتخريب، بدعوى محاربة البدع، وهو تبرير غير مقبول مدنيا ولا شرعياً.

وقد ابتدع بعض المواطنين وضع رخامات على قبور أوليائهم، يسجلون عليها أسماءهم وتاريخ وفاتهم. سئل فضيلة الشيخ بيوض عن ذلك فأجاب قائلاً: "إنّا لا نستطيع أن نقول إنّ وضع مثل هذا الشاهد على القبر حرام لا يحلّ إتيانه. وإنّا نقول إنّّه مكروه، لأنّ النبي ﷺ نهي عن تسنيم القبور وتخصيصها والكتابة عليها (...). وقد سلك سلفنا الصالح هذه السنّة النبويّة، فتركوا قبور أوليائهم غفلاً

الباب الثاني: الأوقاف والتبرعات التابعة للمقابر:

1- الفضاءات المعدة لتنفيذها:

هذه الفضاءات تنقسم إلى صنفين اثنين من حيث المظهر العام:

- فضاء يشتمل على قسم مغطى وآخر مكشوف. نجد في هذا الصنف أروقة الشيخ باحمد وأروقة الشيخ باسه.

- فضاء مكشوف، ذو أرضية مصقولة بملاط الجير، يحيط به جدار منخفض. في هذا الصنف صحن الشيخ حمو أو يوسف وصحن الشيخ بالحاج.

هذه الفضاءات المبنية في المقابر يسميها البعض "مصليات جنازية"، لكن وظيفتها ليست إقامة صلاة الجنازة. موقعها لا يساعد على ذلك، وصلاة الجنازة لا تحتاج إلى أرضية مصقولة، إذ ليس فيها سجود ولا جلوس. وعمليا، كان يصلّى على الميت في أي بقعة قريبة من مكان الدفن. زد على ذلك خلوّ مقبرة آت إزید من مثل هذه الفضاءات.

الوظيفة الوحيدة لهذه الأماكن هي تنفيذ أوقاف على الطلبة في أيام معدودات من السنة، وفق وصايا الأموات، وقراءة القرآن بنية إهداء ثوابها للوالدين والأقارب المدفونين في تلك المقبرة. أمّا المحارب الموجودة في تلك المباني فهي لصلاة الجماعة المقامة فيها بتلك المناسبات.

والتأمل لاتجاه أروقة الشيخ باسه ووضعية محرابها يدرك أن هذه البناية لم يقصد منها أصلا إقامة الصلاة. ويمكن أن نعتبر استثناء بعض الجنازات التي أقيمت في صحن الشيخ حمو أو يوسف عند وفاة شخصيات مرموقة، حيث ساعد على ذلك موقع الصحن واتجاهه.

يتبين مما سبق أن تسمية هذه المعالم التاريخية بمصليات أو مصليات جنازية مجانبة للصواب. إن هي إلا فضاءات للتجمع في موسم المقابر. أضف إلى ذلك أن

ليس عليها حص ولا رخام ولا كتابة (...) ووضع مثل هذه الشواهد الرخامية المنقوش عليها اسم الميت وتاريخ وفاته، فيه من الشهرة ما نعت الشريعة عنه، وفيه بذل مال وإسراف. والناس مولعون بالتقليد والتنافس...³.

مما لفت نظري في مقبرة الشيخ باحمد وجود ضريح وسط المقبرة وضع له لوحتان من الجبس عند الرأس وعند الرجلين تحملان اسم صاحب القبر، وهو القاضي الشيخ الحاج عيسى بن الحاج سعيد مصري، المتوفى يوم 23 شعبان 1339هـ/2 ماي 1921م.

م- زيارة المقابر:

نلاحظ عدداً من الممرات الضيقة تتخلل القبور، يؤدي معظمها إلى مقامات المشايخ، وتسهّل على الزائرين الاقتراب من ذويهم. وتمتاز مقبرة الشيخ باحمد بوجود أزقة مبلطة تتخللها، وأوسعها ذلك الذي يؤدي إلى أروقتها.

يعقد أهالي الميت لفقيدهم زيارات موسمية بمناسبة العيدين ويوم عاشوراء، وزيارات ظرفية، قبل السفر وعند الرجوع منه، على وجه المثال. وتمتاز زيارة عاشوراء باصطحاب سعف النخيل الخضراء ووضعها على القبور، دون أن يكون لهم علم بحال ميتهم.

شرعت زيارة القبور للتذكّر والاعتبار للزائر، والترحم والاستغفار للمزور. فلنحذر من التورط في الشرك، بالاستعانة بالأموات والاستغاثة بهم، مهما بلغوا من درجات التقوى والصلاح.

عند الدخول إلى المقبرة، نقول مثلما علّمنا رسول الله ﷺ: "السّلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين. وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، أنتم فرطنا ونحن لكم تبع، ونسأل الله لنا ولكم العافية".

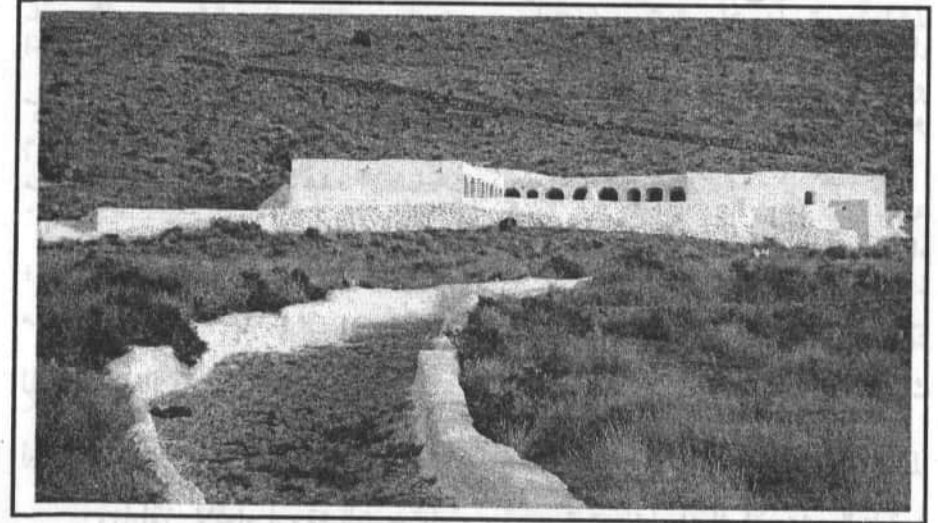
وإذا وصل الزائر إلى المقصود زيارته، استقبل وجه الميت وسلّم عليه، ودعا له واستغفر له.

أهل البلد لا يسمونها مساجد أو مصليات، وإنما يطلقون على الصنف الأول تسمية إِكُومَارَ (أروقة)، وعلى الصنف الثاني تسمية لَمَجَلَّ (حوض).

أروقة الشيخ باحمد وأروقة الشيخ باسه وصحن الشيخ همو أو يوسف كانت تستعمل صباحاً ومساءً في جمعات المقابر. أمّا صحن الشيخ بالحاج فيقتصر استعمالهما أو أحدهما صباحاً، وفي المساء يُواصل التجمع في أرض أمرُصِيد، أين بنيت المدرسة الجابرية الجديدة التي يوصل إليها من القصر عبر المدخل الثانوي المسمّى "خِرَاجَة بَادَحَمَان".

نتناول الحديث الآن، بشيء من التفصيل، عن هذه الفضاءات.

أ- أروقة الشيخ باحمد:



تقع هذه الأروقة أسفل جبل بُوعَمِيد⁴، قبلة مقبرة الشيخ باحمد. سبقها وجود غرفة صغيرة تعرف باسم "غرفة بَازَشَرِي"⁵ طولها حوالي أربعة أمتار، وعرضها حوالي ثلاثة أمتار. مدخلها متجه نحو الجهة الجوفية، مسدود حالياً، ولكن أثر موقعه باقٍ يمكن ملاحظته. سقف هذه الغرفة منخفض بالنسبة لبقية سقف الأروقة.

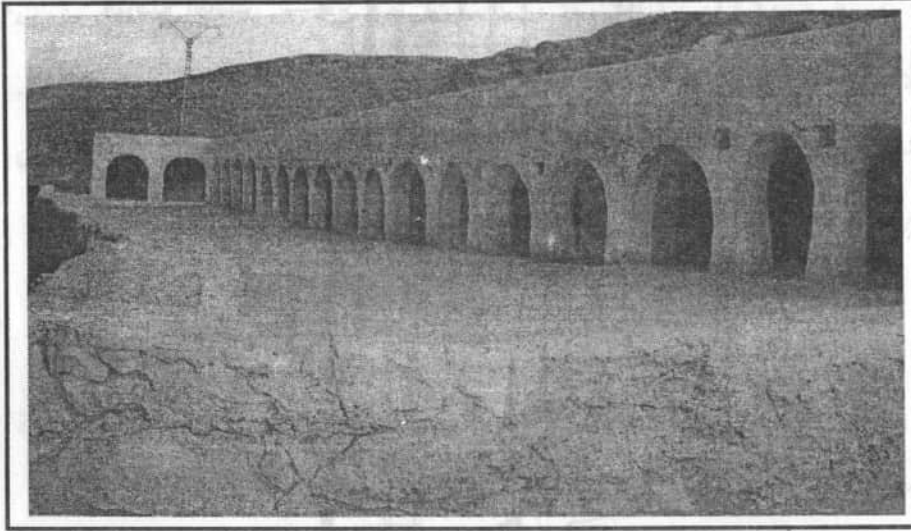
تتألف الأروقة من جزء مسقف ومن صحن مكشوف. مساحة الجزء المسقف حوالي 550 متراً مربعاً، ومساحة الصحن حوالي مائتي متر مربع. يبدو أنّ الأروقة أقيمت على مرحلتين: المرحلة الأولى تشمل الجناح الشرقي والشمالي للأروقة وأسكوبا يصل هذا الجناح بغرفة بَازَشَرِي، وقد مُدَّت غرباً إلى حدّها الحالي. في المرحلة الثانية تمّ توسيع الأروقة والغرفة جنوباً على حساب التل الصخري، فانضافت للبنية أربعة أساكيب جديدة، وأصبحت الغرفة قاعة كبيرة ذات مدخلين، يؤدّي أحدهما إلى بقية الأروقة والثاني إلى الصحن.

تشتمل القاعة على فضاء واسع في زاويتها الشرقية، يجلس فيه صدارة مجلس البقرة. أمّا صدارة مجلس مريم فمحلّها في الجهة الشرقية من الأروقة الأولى.

يتوسط جدار القبلة للقاعة محراب، وجدار القبلة لبقية الأروقة محراب آخر. نجد على جدران البنية عدداً كبيراً من المشكوات ترتفع عن سطح الأرض مقدار ذراع، تستغل لوضع الأمتعة والأحذية. يتمّ الدخول إلى الصحن بواسطة سلّم صاعد في الجهة الغربية، وآخر في الجهة الشمالية. يتوسّط الصحن عمود ذو شكل هرمي، ارتفاعه حوالي متر ونصف، غُرس في جزئه الأعلى وتدل.

أما الصعود إلى سطح الأروقة فيتم بواسطة سلّمين خارجيين، أحدهما من الجانب الجنوبي الغربي والآخر من الجانب الشمالي الشرقي. بُني في سفح الجبل إلى جانب السلّم الثاني حوضان لاستقبال مياه المطر المنحدرة من الجبل ومن سطح الأروقة. كانت توجد غير بعيد من المعلم وشرقه عدد من المراحيض والمغاسيل اندثرت لعدم الحاجة إليها، ثم أزيل أثرها مؤخرًا.

ب- أروقة الشيخ باسّه:

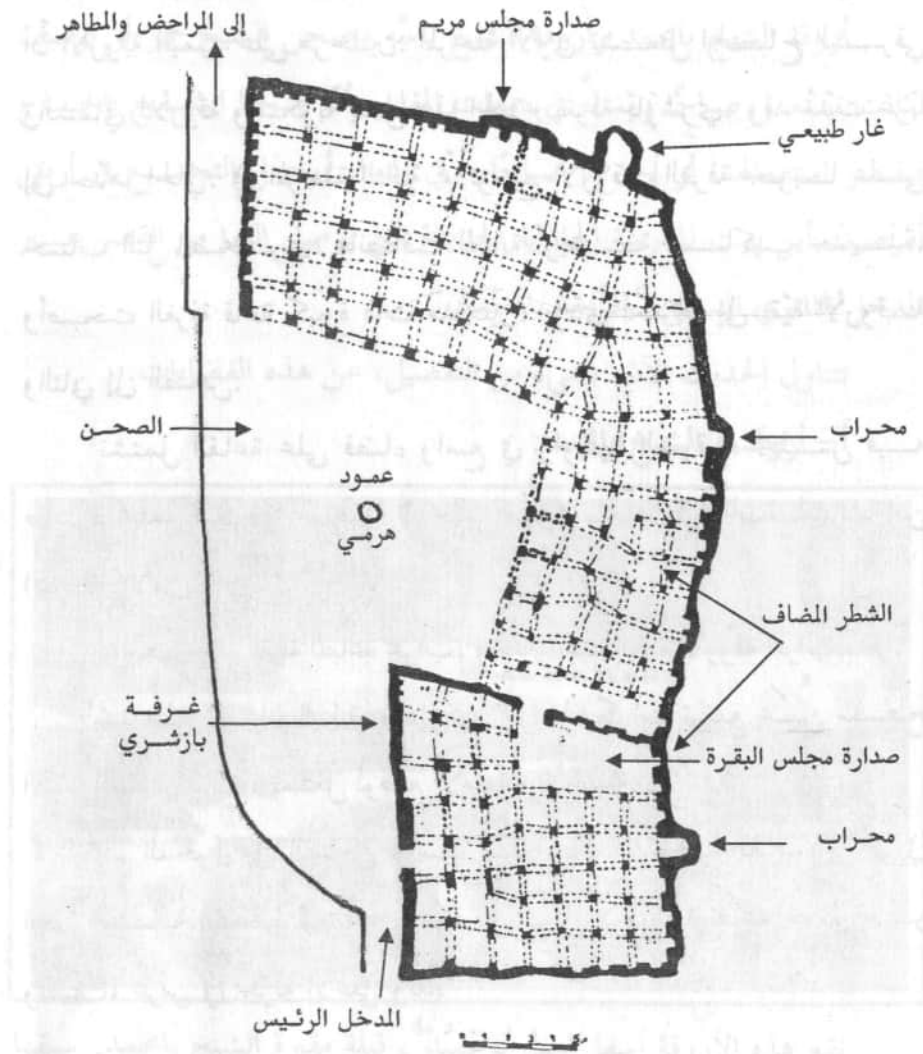


أروقة الشيخ باسّه قبل ترميم 2006

كان بمقبرة الشيخ باسّه فضاء على النمط المكشوف، يحده شرقًا ممر يؤدي إلى ضريح الشيخ باسّه أو فضل وضريح الشيخ عمّي يحيى، وغربًا الجانب الأكبر من المقبرة، وجنوبًا طريق أوجوجن وشمالًا بساتين خاصّة.

وفي زمن ما، يُذكر أنّه وقع اتفاق بين عشيرة آل الفضل وعائلة مريح يقضي بإعطاء بقعة من المقبرة لعائلة مريح لدفن موتاهم فيها، مقابل قطعة أرض أسفل الجبل، أقيمت عليها النواة الأولى لأروقة الشيخ باسّه. أهمل الصحن المذكور، فانطمست معالمه تمامًا.

الشكل رقم: 1

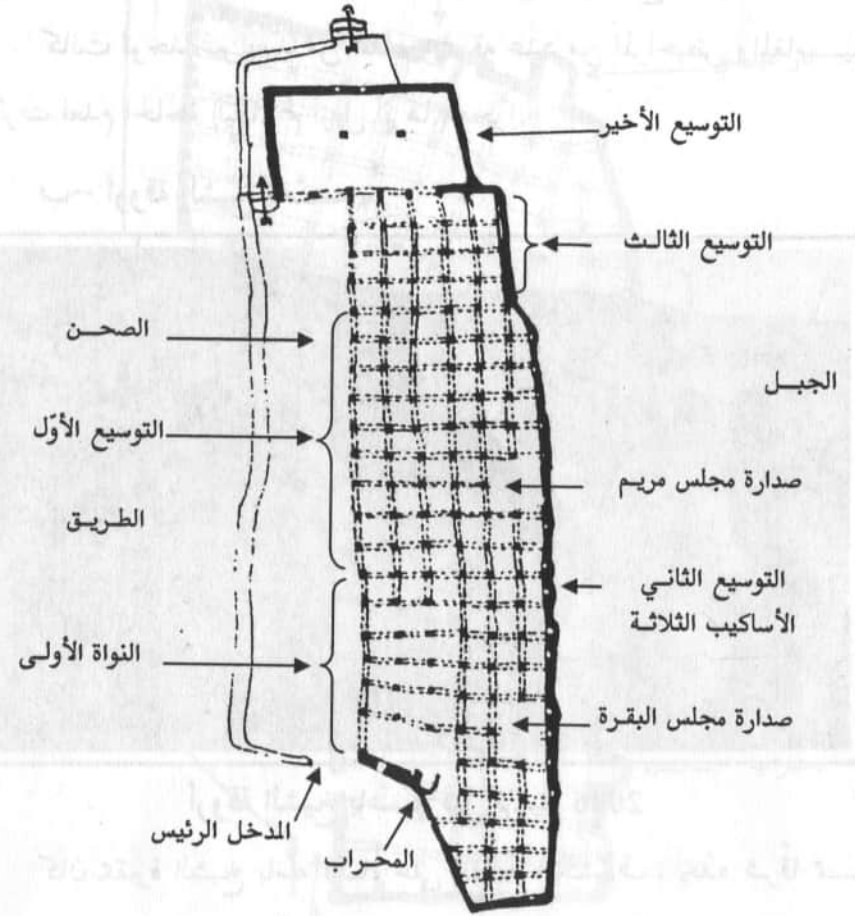


مخطط أروقة الشيخ بامحمد

هذا الشكل مأخوذ بتصريف من كتاب "العمارة الإسلامية - مساجد مزاب ومصلياته الجنازية". ص 159، للدكتور بالحاج معروف.

الشكل رقم: 2

في اتجاه المراحض والمطهرتين



مخطط أروقة الشيخ بأسه قبل 2006

هذا الشكل مأخوذ من كتاب "العمارة الإسلامية - مساجد مزاب ومصلياته الجنائزية ص 213، للدكتور بالحاج معروف.

تتربع الأروقة على مساحة 425م^2 على شكل مستطيل طوله حوالي $42,50\text{م}$ وعرضه حوالي عشرة أمتار. تتألف من ست بلاطات عمودية على جدار القبلة، مشكّلة من 122 دعامة. زوّدت الأروقة بكوات للتهوية والإضاءة، وجدرانها بـ 23 مشكاة لوضع الأغراض المختلفة. يُصعد إلى سطح الأروقة بواسطة سلّمين خارجيين أحدهما من الشرق والآخر من الغرب.

في الجهة الجنوبية للأروقة فضاء مكشوف يبلغ طوله 35 مترا وعرضه الأصلي $5,50\text{م}$ ، كان يحده من جهة الطريق جدار قصير ارتفاعه حوالي 70سم . يتمّ الدخول إلى الصحن عبر مدخل رئيس من الشرق، وسابقا مدخل ثانوي من الغرب يؤدي إلى مرافق قضاء الحاجة والتطهر.

عرفت أروقة الشيخ بأسه أربع توسيعات:

- النواة الأولى:

تتألف من ثلاث بلاطات وخمسة أساكيب، وتشتمل على اثني عشرة دعامة. مساحتها حوالي خمسين مترا مربعا.

- التوسعة الأولى:

تمّت إلى الجهة الغربية، بإضافة فضاء مستطيل طوله $18,50\text{م}$ وعرضه خمسة أمتار، تحمله سبع وعشرون دعامة، يشتمل على عشرة أساكيب جديدة.

- التوسعة الثانية:

حدثت على حساب التل الصخري من الشمال بمسافة $4,40\text{م}$ ، فأصبح عرض الأروقة $9,40\text{م}$. أقيمت على هذا الجزء المضاف ثلاث بلاطات جديدة، مع امتداد لها نحو الشرق بمسافة سبعة أمتار تقريبا. بذلك ارتفع عدد الأعمدة بثلاث وخمسين دعامة جديدة.

صيف في هذا الجزء الجديد فضاءان لاستقبال صدارتي مجلس البقرة
ومجلس مريم في موسم المقابر.
يرجح الأستاذ بوراس يحي أن المحراب بُني في هذه التوسعة الثانية، نظرا
لموقعه وتقنيته بنائه⁶.

- التوسعة الثالثة:

أضيف في الجهة الغربية للأروقة جناح ترتفع أرضيته عما سبق بحوالي
عشرين سنتيمترا، يتألف من خمس بلاطات وأربعة أساكيب تشكلها خمس
عشرة دعامة. ونظرا لخرقة العقود في هذا الجناح، يحتمل أن يكون تاريخ
هذه التوسعة قريبا من 1353هـ/1934م، وهو التاريخ المسجل على جدار
الصهريج الكبير⁷.

- التوسعة الرابعة والأخيرة:

في ستينات القرن الماضي، أضيفت في الجهة الغربية للأروقة والصحن،
قاعة طولها عشرة أمتار وعرضها 6,50م، يرتكز سقفها على دعامتين، وتتصل
بالصحن عبر بائكة من فتحتين.

هذه القاعة أقيمت على أرضية كان بها صهريج لاستقبال مياه المطر
المنحدر من التل⁸.

ملحقات أروقة الشيخ بأسه:

- المراحض: على بعد حوالي ثلاثين مترا غرب الأروقة، تم بناء أربعة
مراحض تقليدية على سفح التل، علو جدرانها لا يزيد عن 1,60م.

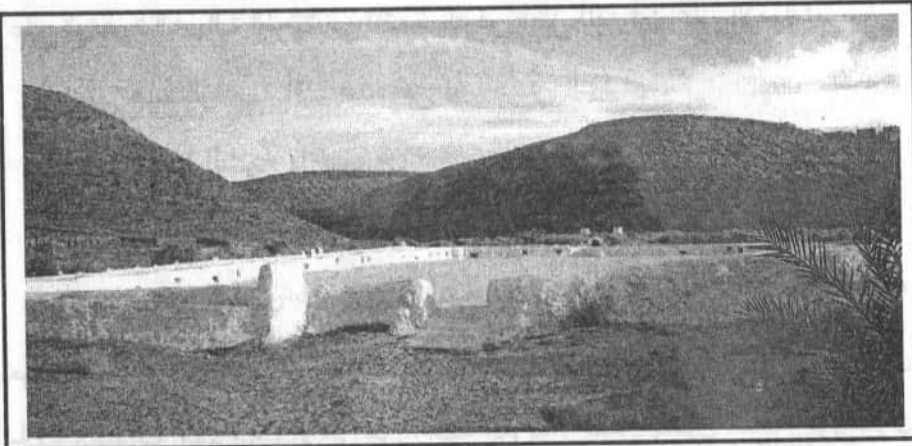
- المطهرتان: في منتصف المسافة بين الأروقة والمراحض بنيت مطهرتان
ذواتي جدران قصيرة، تستعمل للاستنجاء.

- الصهاريج: بنيت لخزن ماء المطر المنحدر من التل ومن سقف الأروقة.

الصهريج الغربي أزيل في التوسعة الأخيرة. هناك صهريج بني شرق
الأروقة لا يفصله عنها سوى السلم الصاعد إلى السطح. أما الصهريج الثالث
فيقع شرق السابق على بعد حوالي خمسة وخمسين مترا، وهو أحدث منه
وأوسع حجما. في ركنه الجنوبي الشرقي كتابة تذكارية تشتمل على تاريخ 25
جوان 1934م/1353هـ، يغلب الظن أنه تاريخ إنجازها.

استفادت هذه الأروقة بعملية ترميم عام 1996، قام بها ديوان حماية
وادي مزاب وترقيته. وفي 2006، تعرض صحن الأروقة للأخذ من عرضه
لفائدة توسيع الطريق المحاذي. ومما نتج عن ذلك رفع جدار الصحن، وزوال
المدخل الغربي، ووضع باب حديدي في المدخل الرئيس.

ج- صحن الشيخ حمو أو يوسف:



صحن حمو أو يوسف

يقع وسط المقبرة، ويؤتى إليه من الجهة الجوفية عبر شارع عرضه حوالي
عشرة أمتار. يقابل المدخل محراب. شكل الصحن رباعي غير منتظم، طول ضلعه
القبلي 15,50م، وطول ضلعه الجوفي 21,60م، وطول الضلعين الباقيين حوالي

31,50م. مسافة الصحن حوالي خمسمائة وسبعين مترا مربعا. أرضيته منحدره. يتجمع ماء المطر النازل فيه في زاويته الشمالية وفي حوض مستطيل الشكل يحاذيه. يحيط بالصحن جدار يبلغ ارتفاعه ستين سنتيمترا وعرضه كذلك. وفيه أدرجت إحدى وأربعون مشكاة لوضع الأمتعة والأحذية.

حول الصحن ممر ضيق، عرضه حوالي متر واحد، يفصل بينه وبين القبور. قبلة محراب الصحن، على بعد حوالي أربعة أمتار، مقام ضريح الشيخ حمو أو يوسف.

في موسم المقابر، صدارة مجلس البقرة تنبؤا الزاوية الغربية من الصحن، وصدارة مجلس مريم الزاوية الشمالية منه.

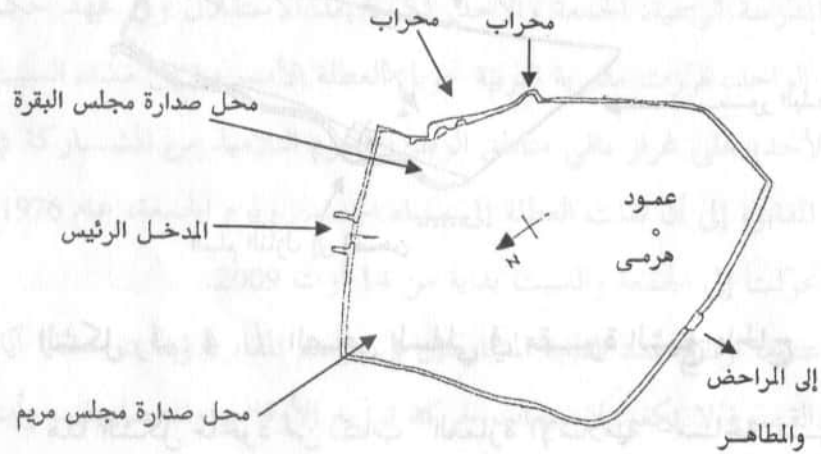
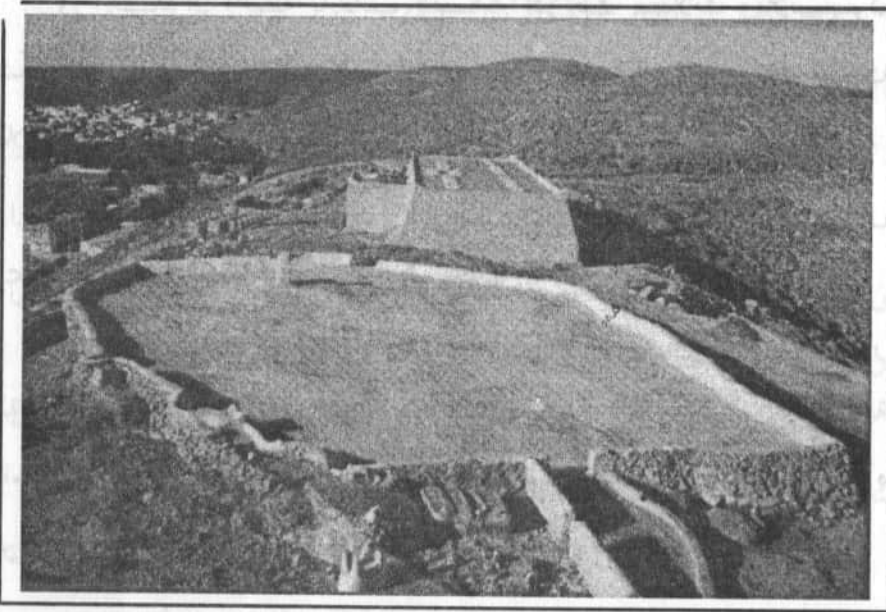
غرس في السنوات الأخيرة نخيل على جانبي الشارع المؤدي إلى الصحن، وعلى الواجهة الشمالية الغربية من المقبرة، لتوفير الظل للقارئ على الأموات.

على هذه الواجهة أقيم عدد من المراحيض التقليدية.

د- صحن الشيخ بالحاج:

أحدهما أعلى موقعاً من الآخر، والعلوي متصل بالقبور وكلاهما بحاجة إلى الترميم. - الصحن العلوي غير منتظم الشكل، مساحته حوالي ثمانمائة متر مربع، يحيط به جدار علوه حوالي سبعين سنتيمترا. له مدخلان متقابلان، أحدهما من الجهة الشمالية الشرقية والآخر من الجهة الغربية. يصل بين المدخل الأول والخزاجة طريق يعبر المقبرة.

في جدار القبلة للصحن نلاحظ وجود محرابين، مما يوحي بحدوث توسيع هذا الصحن للجهة الجنوبية الغربية، كما نلاحظ عدم استواء أرضية القسم المضاف.



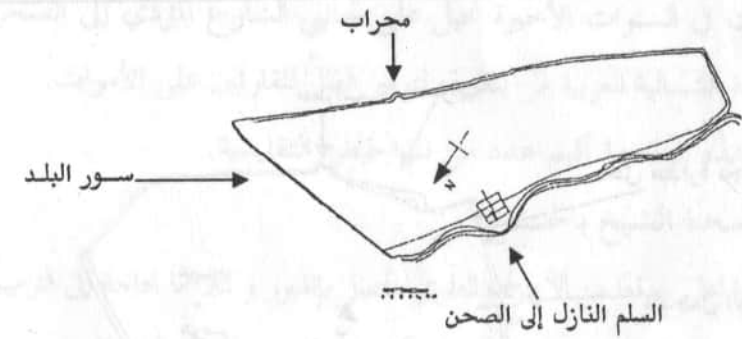
الشكل رقم: 3 / الصحن العلوي في مقبرة الشيخ بالحاج

هذا الشكل مأخوذ من كتاب "العمارة الإسلامية - مساجد مزاب ومصلياته الجنائزية ص 177، للدكتور بالحاج معروف.

في الجدران المحيطة بالجانب القديم أدرجت ثلاث وثلاثون مشكاة، وأقيم عمود هرمي في أعلى نقطة من أرضية الصحن، غرست أعلاه أوتاد خشبية.

صدارة مجلس البقرة كانت تنعقد في الزاوية الشرقية، أما صدارة مجلس مريم فمحلها في الزاوية الشمالية من الصحن.

- الصحن الثاني مساحته حوالي ستمائة متر مربع، يقع على بعد أمتار قبلة الأول وأسفل منه. يحده شرقاً سور البلد، ويترل إليه مباشرة من الخرجة بواسطة سلم من خمس عشرة درجة. أرضيته مستوية، يحيط به جدار علوه حوالي سبعين سنتيمتراً، مزود بمائة مشكاة، وفتح في جداره القبلي محراب.



الشكل رقم: 4 / الصحن السفلي في مقبرة الشيخ بالحاج

هذا الشكل مأخوذ من كتاب "العمارة الإسلامية - مساجد مزاب ومصلياته الجنائزية" ص 178، للدكتور بالحاج معروف.

كان هذا الصحن يستعمل عوض الآخر في موسم المقابر عند اشتداد الرياح، وهو حالياً مهمل تماماً. يذكر أنه بنيت بين الصحنين مراحيض تقليدية، تمّ هدمها مؤخراً⁹.

2- موسم المقابر (لمكابر بالمزاوية)

أ- توقيت موسم المقابر:

قديمًا اختير له فترة شهري ديسمبر وجانفي لاشتداد حاجة الفقير فيها إلى الطعام لشدة البرد، فيزود بمؤونة غذائية لبعض أيام الأسبوع، يستعين بها على فاقتة. وطعام الوقف مصنوع بكيفية يمكن حفظه لأيام، حيث يحضر على بخار الماء مرة واحدة، ويحتاج إلى إعادة التوفير في المتل ليصبح تام التحضير. أما اختيار يوم الجمعة فلكونه يومًا مباركًا، أخفى الله فيه ساعة يستجاب فيها دعاء المؤمن، لعله يصادفها.

من جهة أخرى، فإن يوم الجمعة كان في الفترة الاستعمارية يوم عطلة أسبوعية مشتركا بين عطلة المحاضر والمدارس الحرة: الخميس والجمعة، وبين عطلة المدرسة الرسمية: الجمعة والأحد. لكن، بعد الاستقلال وفي عهد حكم الحزب الواحد، قرّرت مديرية التربية تحويل العطلة الأسبوعية إلى مساء السبت ويوم الأحد، على غرار باقي مناطق الوطن، فحرم التلاميذ من المشاركة في موسم المقابر، إلى أن نقلت العطلة إلى مساء الخميس ويوم الجمعة، عام 1976. والآن تحوّلت إلى الجمعة والسبت بداية من 14 أوت 2009.

عندما ارتفع عدد الطلبة المشاركين في موسم المقابر، وظلّت عشايا أيام الشتاء القصيرة لا تكفي لاستيعاب حركة توزيع الأوقاف والمعاريف، رأت حلقة العزابة تنظيم الموسم خلال الثلاثي الأول من السنة الشمسية، وإذا صادف شهر رمضان، يوقف الموسم ثم يستأنف بعد عيد الفطر.

الاستفتاح للموسم كان بتجمّع في عشية يوم جمعة، في مجرى وادي نّيسّا، عند السّد الأصغر، بالمكان المعروف بـ "أقدّاش"، وهو بمثابة إعلان عام عن بداية الموسم، يتمّ فيه قراءة القرآن وتوزيع الصدقات. وفي الجمعة

الموالية يبدأ الموسم، وتتتابع المقابر على الترتيب الآتي:

- الجمعتان الأوليان بمقبرة الشيخ باحمد، وكانتا خاصتين بالمعاريف (جمع "معروف" وهي الصدقات التطوعية)،

- الجمعة الثالثة بمقبرة الشيخ باسه،

- الجمعة الرابعة بمقبرة الشيخ حمو أو يوسف، وكانت خاصة بالمعاريف،

- الجمعتان الخامسة والسادسة بمقبرة الشيخ باحمد، لتنفيذ الأوقاف،

- الجمعة السابعة بمقبرة الشيخ حمو أو يوسف، لتنفيذ الأوقاف،

- الجمعة الثامنة والأخيرة بمقبرة الشيخ بالحاج، وتسمى لُخْتَمَت: الختمة.

كان افتتاح المجالس قديماً يتم بعد أداء صلاة الفجر مباشرة، ويشهده طائفة ممن يتعين دفنهم في تلك المقبرة، ويتواصل تلاحق الطلبة إلى أن يكون آخر من يصل هو رئيس الحلقة بعد طلوع الشمس، ولا يسمح لأحد أن يلتحق بأي مجلس بعد مجيئه. وتتواصل التلاوة إلى منتصف النهار.

وعندما يحين الانصراف يقوم رئيس الحلقة أولاً، ثم يليه بقية العزابة مثنى وفردى خلال نصف ساعة تقريباً، حتى إذا بقي آخرهم، يتولى إيقاف التلاوة بالدعاء، وينصرف الجميع.

أما الآن، فإن رئيس الحلقة يحضر على الساعة الثامنة، وينصرف هو على الحادية عشرة وربع، وباقي الطلبة على الحادية عشرة والنصف.

يعود الطلبة مساء قبل أذان العصر لمواصلة التلاوة. كان يؤذن للعصر في المقبرة. بعد أداء المكلفين صلاة العصر، تواصل العامة التوافد، متخذين مقاعد لهم منعزلين عن الطلبة، للمشاركة في الختمة.

كانت العامة تجلس على سطح الأروقة وعلى الجدران المحيطة بالصحن. وتتوزع عشية الشيخ بالحاج في أرض أمرصيد بين الخراجة والمجالس.

تواصل المراسيم لتنتهي قبيل أذان المغرب أو بعيده، على حسب طول العشية وقصرها، وعلى حسب عدد الحاضرين، وعلى حسب إحكام تنظيم الأشغال.

كانت عشية الشيخ بالحاج تمتاز باتخاذ البلد إياها عيداً، تتزين فيه عرائس تلك السنة، ويحضرها من الحجة عرسان ذلك اليوم بلباسهم التقليدي. وقديماً، كان يسمح للطلاب أن ينضم إلى مجالس هذه العشية حتى ولو لم يحضر صباحاً في مقبرة الشيخ بالحاج، بينما لا يأخذ من أوقاف المساء في غيرها من المقابر من لم يشارك في مجالس الصباح. الملاحظ في إحصاء الحاضرين من العامة في السنوات الثلاث الأخيرة أن عددهم أمسية الشيخ بالحاج ضعف معدل عددهم في الجمعيات السابقة.

ب- تحويل مراسيم المقابر من مكانها:

ارتفاع عدد الطلبة المشاركين، وضيق فضاءات التجمع، جعل حلقة العزابة تحول الموسم:

أولاً - إلى المدرسة الجابرية بأمرصيد، في الجمعة الثالثة منه يوم 26 فيفري 1982. اتخذت المصلّى لمجلس البقرة، والقاعات: 26، 27، 28 لمجلس مريم، قبل الفصل بينها، وعدداً من القاعات الدراسية لبقية المجالس. في المساء كان الجميع، طلبة وعامة يجلسون في فناء المدرسة.

ثانياً - إلى المسجد الكبير بطالمت في سنة 1997. تُعقد المجالس صباحاً في قاعة الصلاة. أما أنشطة المساء، فقد نظمت في نفس المكان، وبعد تدشين المسجد، حوّلت إلى السطح، ثم جُمع الطلبة في مصلّى النساء بالطابق العلوي وبقية العامة في السطح، وأخيراً أعيد الجميع إلى قاعة الصلاة العامة.

التحول من المقابر إلى المدرسة عرف مرحلة انتقالية، حيث كان أصحاب المقبرة لتلك الجمعة يعينون جماعة منهم تتولّى الشروع في التلاوة في المكان الأصلي لها، ثمّ تلتحق بالمدرسة بعد قراءة نصيب معيّن من القرآن. أستغني عن هذا الإجراء بعد مدّة قصيرة.

وللمحافظة على فضاءات التجمع الأصلية، برجحت حلقة العزابة الاحتفال فيها ببعض المناسبات:

- "المعروف" في أروقة الشيخ باحمد، بعدما كان يقام بين المقابر (جَارَ لَمَكَابِرْ).

- الاستفتاح لموسم المقابر في أروقة الشيخ باسه، بعدما كان ينظم في أقدّاش.

- تجمع "الزيارة" عشية في صحن الشيخ حمو أو يوسف، بعدما كان ينعقد بين المقابر.

- الإبقاء على تجمع العيدين عشية في الصحن العلوي بمقبرة الشيخ بالحاج، إلى أن تحول إلى المسجد العتيق لأسباب أمنية.

ج- مجالس تلاوة القرآن:

في القديم، كانت تنعقد صباحا أربعة مجالس:

- مجلس البقرة: يتصدّره كلّ العزابة باستثناء لَفَقَيَّانِ الثلاثة. يضمّ المجلس من رغب فيه من الختمة. هو مجلس قارّ لا يمكن أن يضاف إليه أحد بعد حضور رئيس الحلقة.

- مجلس مريم: يتصدّره لَفَقَيَّانِ الثلاثة.

- مجلسا سورة الرحمن والملك: هما مجلسان انتقاليان. يتكفّل بهما عدد من إرّوَانْ، يشرفون على تكرار حصّة كلّ منهما إلى أن يفرغا من الطلبة. ذلك أنّ الطالب في هذين المجلسين يترصد وصول مجلس مريم إلى السورة التي بلغها في المحضرة، وعندها يتحوّل إليه.

في الأروقة يستغل الطلبة وجود الدعامات للاتكاء، والسقف يقيهم من أشعة الشمس. بخلاف حالتهم في صحن الشيخ حمو أو يوسف أو الشيخ بالحاج، فإنّهم يتعرّضون إلى حرارة الشمس في الشطر الثاني من الفترة الصباحية فيستنجدون بقلنسوة برانسهم، ويعوضون الاتكاء إلى الدعامات بالاصطفاف داخل المجالس صفيين صفيين، بحيث يسند طلبة كلّ صف ظهورهم إلى ظهور الصف المقترن به.

حين يقترب موعد المقابر، يتمّ اختبار الطلبة الجدد الذين وصلوا إلى نهاية الملك أو على الأقلّ نهاية القلم، ليستحقّوا حضور أوقاف المقابر والالتحاق بالمجالس، وهو ما يسمّى أَرْجَالْ. كان هؤلاء يوزعون على الفقهاء الثلاثة (لَفَقَيَّانِ). يستقبل كلّ واحد منهم طائفة منهم في منزله صباح يوم خميس بعد صلاة الفجر، ويشرف على تلاوتهم جماعيا من سورة الملك إلى الخاتمة. وهدف الإجازة في هذا العرض هو اختبار قدرة التلميذ على الانسجام في التلاوة الجماعية¹⁰.

كان الطلبة لا يعتمدون في التلاوة الجماعية على المصاحف، ومن وُجد منهم يتتبّع القراءة من المصحف في المجلس قيل له: "إطو مصحفك، إنّما جعل هذا للمراجعة في المنزل".

النمو الكبير لعدد التلاميذ البالغين سورة الملك جعل الحلقة تتخذ إجراء للحدّ من عددهم في موسم المقابر، حيث اشترطت عليهم بلوغ سورة الرحمن وأن يكونوا مكلفين، باستثناء من ختم القرآن قبل البلوغ، تكريما لمجهوداته، وأصبح اختبار أَرْجَالْ يشمل التلاوة من سورة الرحمن إلى الناس.

وتولّد عن هذا الإجراء الاستغناء عن مجلس الملك في المقابر وإحداث مجلس يس. وقبل سنوات أضيف مجلس الأعراف، ثمّ مجلس يوسف في موسم

2008. والجمعة الثانية من موسم 2009 شهدت ميلاد مجلسين آخرين: النساء والنمل، بحيث أصبح عدد المجالس ثمانية، يكفي لإتمام السلكة أن يتلو كل واحد منها ثمن القرآن.

إليك، أخي القارئ، إحصاء التلاميذ المشاركين في اختبارات أَرْجَالٍ من 1985 إلى 2009، مع ذكر أسماء الفقهاء (لَفَقِيَّانٍ) المشرفين على الدورة، وتاريخ أول جمعة من جمعات المقابر في هذه الفترة التي تمتد ربع قرن.

إحصاءات اختبارات "أَرْجَالٍ" من سورة الرحمن إلى سورة الناس

تاريخ بداية فترة المقابر	أسماء الفقهاء	العدد	تاريخ الاختبار
أول مقبرة الجمعة 1 مارس 1985		73	
أول مقبرة الجمعة 21 فيفري 1986		95	
أول مقبرة الجمعة 20 فيفري 1987		41	
أول مقبرة الجمعة 8 جانفي 1988		136	
أول مقبرة الجمعة 6 جانفي 1989	شرفي الحاج عمر، بابانو الحاج محمد، طلاي الحاج إبراهيم	115	الخميس 12 جانفي 1989
من بين المستطهرين خاتمان غير بالغين			
أول مقبرة الجمعة 5 جانفي 1990	أبصير الحاج محمد، شرفي الحاج عمر، بابانو الحاج محمد	110	
أول مقبرة الجمعة 4 جانفي 1991	شرفي الحاج عمر، بابانو الحاج محمد، طلاي الحاج إبراهيم	135	
أول مقبرة الجمعة 10 جانفي 1992	شرفي الحاج عمر، بابانو الحاج محمد، طلاي الحاج إبراهيم	115	الخميس 16 جانفي 1992
أول مقبرة الجمعة 1 جانفي 1993	شرفي الحاج عمر، بابانو الحاج محمد، طلاي الحاج إبراهيم	99	
أول مقبرة الجمعة 21 جانفي 1994	أبصير الحاج محمد، شرفي الحاج عمر، طلاي الحاج إبراهيم	109	
توقف الموسم مدة رمضان واستؤنف في 1994/03/18		19	
أول مقبرة الجمعة 6 جانفي 1995	أبصير الحاج محمد، بابانو الحاج محمد، طلاي الحاج إبراهيم	97	
توقف الموسم مدة رمضان واستؤنف في 1995/03/10			

أول مقبرة الجمعة 29 ديسمبر 1995	أبشير الحاج محمد، بابانو الحاج محمد، طلاي الحاج إبراهيم	116	
توقف الموسم مدة رمضان واستؤنف في 1996/02/23		10	
أول مقبرة الجمعة 3 جانفي 1997	أبشير الحاج محمد، بابانو الحاج محمد، طلاي الحاج إبراهيم	117	
توقف الموسم مدة رمضان واستؤنف في 1997/02/14		19	
أول مقبرة الجمعة 13 فيفري 1998	أبشير الحاج محمد، بابانو الحاج محمد، طلاي الحاج إبراهيم	107	الجمعة 23 جانفي 1998
	أبشير الحاج محمد	22	الخميس 12 مارس 1998
أول مقبرة الجمعة 5 فيفري 1999	أبشير الحاج محمد، بابانو الحاج محمد، طلاي الحاج إبراهيم	128	
أول مقبرة الجمعة 14 جانفي 2000	بابانو الحاج محمد، طلاي الحاج إبراهيم، باحرز أحمد، باحرز أحمد	61	
		12	
أول مقبرة الجمعة 2 فيفري 2001	أبشير الحاج محمد، طلاي الحاج إبراهيم، باحرز أحمد	53	الجمعة 29 ديسمبر 2000
	أبشير الحاج محمد، باحرز أحمد، باحمد حمو	63	الجمعة 26 جانفي 2001
أول مقبرة الجمعة 8 فيفري 2002	أبشير الحاج محمد، باحرز أحمد، باحمد حمو	93	الجمعة 1 فيفري 2002
	باحرز أحمد	30	
أول مقبرة الجمعة 14 فيفري 2003	طلاي الحاج إبراهيم، باحرز أحمد، باحمد حمو	98	السبت 8 فيفري 2003
	باحمد حمو	8	الأربعاء 19 فيفري 2003

أول مقبرة الجمعة 27 فيفري 2004	أبشير الحاج محمد، باحرز أحمد، باحمد حمو	128	الخميس 26 فيفري 2004
		5	الخميس 18 مارس 2004
أول مقبرة الجمعة 25 فيفري 2005	طلاي الحاج إبراهيم، باحرز أحمد، باحمد حمو	127	الجمعة 11 فيفري 2005
	باحرز أحمد	15	الاثنين 14 فيفري 2005
أول مقبرة الجمعة 3 فيفري 2006	أبشير الحاج محمد، باحرز أحمد، باحمد حمو	138	الخميس 9 فيفري 2006
أول مقبرة الجمعة 2 فيفري 2007	أبشير الحاج محمد، باحرز أحمد، باحمد حمو	136	الجمعة 26 جانفي 2007
		11	الخميس 1 فيفري 2007
أول مقبرة الجمعة 1 فيفري 2008	أبشير الحاج محمد، باحرز أحمد، باحمد حمو	55	الأربعاء 29 أوت 2007
	باحرز أحمد، باحمد حمو	94	الاثنين 28 جانفي 2008
أول مقبرة الجمعة 6 فيفري 2009 / 11 صفر 1430	أبشير الحاج محمد، باحرز أحمد، باحمد حمو	98	الأحد 3 أوت 2008
	باحرز أحمد، باحمد حمو	55	الخميس 29 جانفي 2009

- العدد الثاني في كل موسم - إن وجد - هو عدد المترشحين في القائمة الإضافية.
- هذا الإحصاء أخذ من سجل المدرسة الجارية القرآنية للبنين.

في القدم، كانت نسبة الكبار في المقابر مرتفعة، ثم بدأت تنخفض مع تزايد عدد الأطفال. ورغم مضاعفة عدد المجالس الصباحية، فإنّ القائمين على تسييرها، من غير مجلسي البقرة ومريم الأصليين، يجدون صعوبة كبيرة لحمل الطلبة المراهقين على التلاوة والانضباط، لسوء توزيع الكبار على هذه المجالس. كان ينعقد في المساء قبل صلاة العصر مجلسان لمواصلة التلاوة من حيث توقف مجلس البقرة ومجلس مريم في منتصف النهار. وبعد إحداث مجلس الأعراف، صار ينعقد مجلس واحد بداية ممّا انتهى إليه هذا المجلس الجديد. أمّا الآن فإنّ مجلس المساء قبل العصر ينطلق من سورة الملك.

بعد صلاة العصر، يشارك الجميع، طلبة وعوام، في الختمة، حيث يعلن كبير الفقهاء منادياً: "وَالْ تُحَرِّشْتُ، أَلَا نَ حَتْمَنَ" أي "لا تتحركوا، إنهم يَخْتَمُونَ"، وتقرأ السور الأواخر من القرآن، انطلاقاً من سورة العصر، ثم يدور الدعاء بين العزابة الثلاثة الكبراء.

د- طبيعة الأوقاف والتبرعات في موسم المقابر:

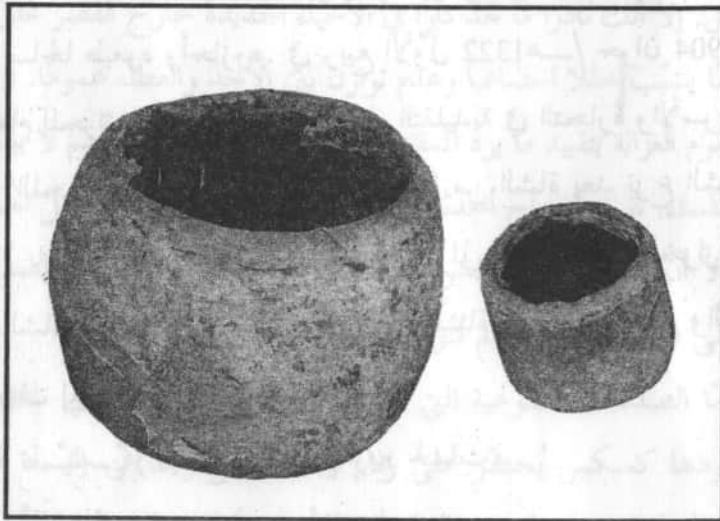
أكثر أنواعها طعام كسكس محضّر مع ما يقتضيه من لحم وسمن، وبعض البقول كالجزر والبطاطا، وقد يضاف إليه بيض مسلوق. هذا النوع يؤتى به صباحاً مع غيره، ويقتصر عليه في المساء. بقية الأنواع الصباحية هي:

- طعام "الرئيس" المحضّر مع التمر والمدهون بالسمن.
- الخبز بنوعيه التقليدي والحديث.
- التمر بمختلف أنواعه، يجمع دون تمييز، إلا دقلة نور سابقاً،
- فول مسلوق (بكميات محدودة)،
- السكر المعلّب (بكميات محدودة)،
- نقود.

هذه الصدقات إمّا أن تكون تطوعية فتسمّى معروفًا، وإمّا أن تكون أوقافاً معلّقة في الدور، وتسمّى بالمزايبة تُثَوَّبَاوِينْ، والمفرد تُثَوَّبَا. للموصي بها أجر الحثّ على العمل الخيري، وللمنفق ثواب ما صرفه في تنفيذ هذا الوقف، ولربّات البيوت فضل ما يصرفنه من جهد في إعدادهن، ولأبنائهن شرف نقله إلى المقابر حيث يتمّ الاستفادة منه، بالإضافة إلى أجر تلاوة القرآن الكريم.

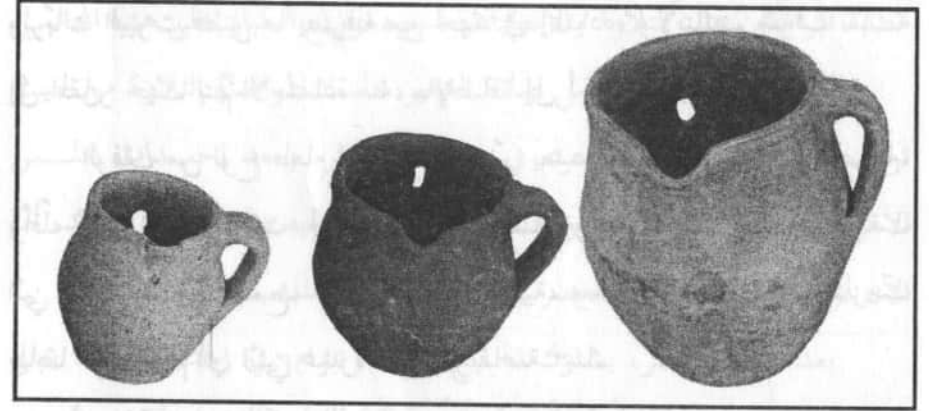
الوقف من نوع طعام الكسكس يقدر بعدد أمداد القمح اللازم لصنعه، وأقلّه ثلاثة أمداد وثلاث لحمت من لحم الضأن وربيع نقّاصة سمنا. وإذا بلغت اثني عشر مدّاً من القمح، سميت تجلّي بالمزايبة، وحثية بالعربية، واستلزمت طابقاً من اللحم أي اثني عشرة لحمة، ونقاصة سمنا.

- المدّ والحثية مكيالان خشبيان للحبوب. سعة المدّ حوالي 0,85 لتراً، والحثية حوالي عشرة لترات. مد بني يزقن يساوي مد الحجاز.



نموذج من المد مغلف بالجلد نموذج من الحثية مغلف بالجلد

- النقاصة مكيال فخاري للسوائل، ذو مقبض واحد، يسمّى بالمزابية
تَجْدُوتْ. سعتها حوالي 0,90 لترا، وعلامة الكيل بها ثقب. ومثلها نصف
النقاصة وربيع النقاصة.



نموذج من النقاصة نموذج من نصف النقاصة نموذج من ربيع النقاصة
مراقبة المكايل التقليدية للحبوب والسوائل من مهام حلقة العزابة، وما
وجدوه صالحا طبعوه وأجازوه. في ربيع الأول 1322هـ/ جوان 1904م، منع
الوالي العام للجزائر استعمال هذه المكايل التقليدية في التجارة والأسواق.
- اللحم جزء من ثمانية وأربعين جزءا من الشاة بعد نزع الشواكل
(إِلْشَفَانْ بالمزابية)، ووزن اللحم الواحدة حوالي 350 غراما. للجزارين دراية
بتقسيم الشاة على الطريقة التقليدية. تقسم الشاة نصفين، اليمين واليسار،
وكل نصف إلى ستة مفاصل:

- تَغْسِدِسِنْ (الأضلع) ويشمل أربع لحمت،
- أَمَشْضْ (الظهر) ويشمل أربع لحمت،
- تَحْمَسِنْ تَنْجَلُطْ (لحمت الكلى) ويشمل أربع لحمت،
- أَمَصْرُورْدْ (الكتف) ويشمل ست لحمت.

- تَقْرُولِنْ (الحوض) ويشمل لحمتين.
- أُنْكَوُضْ (الفخذ) ويشمل أربع لحمت.
والمجموع 24 لحمة في كل نصف شاة.
كان يشترط في السمن أن يكون ضائيا (غنميا) لجودته ورفعته. لكن
مع تغيّر الظروف المعيشية، سمح مجلس العزابة باستعمال السمن البقري.
وقف الخبز كان يقدر بعدد مدود القمح اللازم لصنعه على الطريقة
التقليدية. ومنذ حوالي ثلاثين سنة، قرّرت الحلقة قبول تعويض المدّ الواحد
بثلاث خبزات من خبز المخايز العصرية.
تنصّ عقود بيع الديار المعلقة بها ثنوباًوين على مقدارها، ومقبرتها محلّ تنفيذها،
ووقتها صباحاً أو مساءً، على النحو الآتي: "فاشترى الأول من الثاني داره...بنوبة
فيها حثية برّا وطابق لحما ونقاصة سمنا في مقبرة كذا عشاء أو صباحاً".
تكاد لا تخلو دار من الديار داخل القصر من ثنوباً، وقد يُطرح على بعضها
مالا تطيق. إلا أنّك نادرا ما تجد داراً في الأحياء الجديدة خارج القصر علّق عليها
وقف، ممّا يسبّب خللا اجتماعيا وعدم توازن بين الأخذ والعطاء عموماً.
يقوم العزابة بتقييد ما يرد للمقبرة من الأوقاف صباحاً، لكنهم لا يسجلون
أوقاف المساء. تقييد الصباح أحدثه الشيخ الحاج صالح لعلي، على أمل تميمه على
المساء، إلا أنّ أجله لم يمهل، إذ توفي عام 1928. لكن عملية الصباح المعمول بها إلى
اليوم تبقى دون جدوى ما لم تُتّوَجَ بمتابعة المتخلفين ومحاسبتهم.
أما الصدقات التطوعية التي يتفضّل بها أصحاب المقبرة في تلك الجمعة،
فإنّ أجودها كسكس يُحضّر على بخار الماء مرّتين، ويضاف إليه البطاطا
والبيض المسلوق، علاوة على السمن واللحم، ويُطلق عليه اسم لَمْخَوْرْ. وإذا
كانت القصعة من الحجم الكبير الذي يتطلب حملة شخصين بواسطة عمود
المنسج (تَرْسَلَتْ نُوزَطًا) سمّيت تَكْحَكْحَتْ.

وأخيراً، ومن جملة الأوقاف المنفذة في موسم المقابر، وظيف تلك المقبرة من التمر المخزون في المسجد، يكلف العزابة من يحمله منه إلى المقبرة، فيسلم له عشية الخميس ليحضره في الصباح الموالي إلى المقبرة.

هـ- المستفيدون من الأوقاف والمعاريف:

المستفيدون منها قسمان: القسم الأول يشمل الطلبة المشاركين في تلاوة القرآن ضمن المجالس، والقسم الثاني بقية الحاضرين في المساء. أطلقت مصطلح "الطلبة" على القسم الأول، ومصطلح "العامة" على الثاني.

الأنظمة المتبعة قديماً:

قديماً كان الطالب يرتدي، إضافة إلى الحائك الإلزامي، سروالاً "عريباً" وعباءة صوفية بيضاء، وبرنوساً صوفياً أبيض، ويصطحب معه قفّة مصنوعة من خوص النخل، فيها صحن (أغراف) أو صحنان من الخشب، صباحاً، وفي المساء يحضر منديلاً صوفياً مصبوغاً (تَمَنَدِلَتْ) لحمل ما ينوبه من اللحم. كما أن قصاع الكسكس كانت تلف في مناديل صوفية، وتحمل على الرؤوس. وكانت الفتيات عند مشاهدة هذا المنظر يُنشدن: "أَنْزَوَ أَنْ بَاحْمَدَ، تَنْ أَنْ حَمُو يُوسَفَ" أي: "قصعة باحمد، تلك لحمو يوسف". أما الآن فإن البرنوس قد اختفى تماماً، والأواني التقليدية عوضت بالمنتجات المعدنية والبلاستيكية.

يقوم أبناء عشائر المقبرة بتنظيف موقع التجمع، وإحضار الحصائر والأواني اللازمة للغسل والشرب ولجمع الصدقات وتوزيعها.

في الصباح، بعد حضور رئيس الحلقة، تتولى جماعة منهم جمع الصدقات وتصنيفها. ويُرجع لكل من أحضر صدقة ثمنها في الوعاء الذي يحويها، إلا ما كان لحماً أو بيضاً أو نقوداً فلا يرجع منه شيء. والنصيب الذي يعاد إلى أصحاب الصدقة من طعام أو خبز أو تمر يسمى تَمَرَتْ أي البركة. يتولى العزابة تقييد ما

حضر من تَبَاوَيْنَ في صدارة مجلس البقرة. بعد الجمع والتصنيف، يشرع في التوزيع على الترتيب الآتي: تمر، فخبز، طعام كسكس، ثم لحم. يبدأ التوزيع على مجلس البقرة، ثم ينتقل إلى مجلس مريم بالتساوي. من بقي في مجلسي سورة الرحمن والملك يعطى نصف الحصّة من التمر والخبز والكسكس. أما اللحم فلا نصيب له فيه. وتحفظ لمراقبي هذين المجلسين حصّتهم كاملة، إن كانوا ممن دعي من أحد مجلسي البقرة أو مريم لمهمة التأطير.

كلّ هذه الحركة من جمع وتقييد وتوزيع كانت تجري في المجالس وقت تلاوة القرآن.

من جهة أخرى، فإن عدداً من الطلبة كانوا يحضرون إلى المقبرة بدواهم، ليذهبوا بها عند الضحى إلى بساتين الشجرة، لجلب الماء العذب في قريهم، قصد إرواء الطلبة من الظمأ.

من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يُخرج الفقهاء (لَفَقِيَان) من المجالس الطلبة الذين بلغ عنهم ارتكاب أنواع من المنكرات، مثل تعاطي السعوط (الشمّة)، حضور حفلات الرقص، حلق اللحية،...، فيخيرون بين الانصراف إلى منازلهم وبين الإذعان لضربات عصا أحد لَفَقِيَان، تأدياً وتعزيراً، وذلك قبل الشروع في توزيع الصدقات والأوقاف صباحاً.

في المساء وبعد الختمة، كان يُمرّر إبريق الماء على الطلبة ليبللوا أيديهم، بعنوان غسلها، ثم يقوم العزابة بتوزيع قصاع الطعام إلى مجموعات، وتوزيع الطلبة حول كلّ مجموعة من القصاع، حسب عددها وحجمها. وعند تمام العملية، يؤمر الطلبة ليستخلص كبارهم في كلّ مجموعة ما في قصاعها من اللحم يضعونه جانباً، ثم يؤذن للجميع، طلبة وعامة، بأكل الطعام. وأثناء ذلك تقوم كلّ مجموعة من الطلبة بقسمة اللحم بالتساوي على أفرادها.

قبل الدعاء يتمّ معادلة ما تبقى من الطعام في القصاع، ويؤخذ نصيب منه للبدو المتجمّعين قرب المقبرة، يوزع عليهم رجالاً وصبياناً. توقّف حضورهم لهذه المناسبات منذ عام 1976.

وكان لراعي قطيع معز البلد مقدار معلوم من هذه الصدقات.

بعض ما طرأ على الأنظمة من تعديلات:

تزايد عدد الطلبة الصغار، مثلما أفرز تغييرات في المواقع والمواقيت والمجالس، استوجب القيام بتعديلات في طريقة جمع الصدقات وتوزيعها. ومن ذلك ما يلي:

- يُسلّم الطلبة حالياً كلّ ما أحضروه من الصدقات للمكلفين بجمعها قبل الدخول إلى المجالس، ما عدا النقود.

- يتولّى العزابة تقييد أوقاف الصباح خارج المجالس.

- يُعطى لكلّ طالب، بعد حضور رئيس الحلقة في الصباح، بطاقة بلاستيكية مرقمة. بذلك يضبط عدد الطلبة الحاضرين، ويضمن أن لا يرتفع ذلك العدد في المساء.

- توضع منذ 2007 كلّ أنواع الصدقات الصباحية، باستثناء اللحم، في أكياس، وتقدّم للطلبة جملة واحدة قبل الانصراف، ما عدا النقود التي توزّع عليهم وقت التلاوة.

هذه الإجراءات قضت على الكثير من الحركة في المجالس.

- التوزيع أصبح بالتساوي على جميع الطلبة.

- يُضمّ اللحم الوارد في الصباح إلى ما يجمع في المساء.

- في المساء، يُرجع نصف كمية الكسكس لصاحب الوقف وثلاثها لصاحب المعروف.

- بعد الختمة في المساء، يوزع الكسكس في أكياس على الطلبة وعلى العامة، للطلاب مثل حظّ عاميين. أمّا اللحم فيفرق حصراً على الطلبة في أكياس كذلك، مقابل تقديم البطاقات البلاستيكية الموزعة عليهم صباحاً.

يُمنع منعاً باتاً تناول أيّ مأكول مدّة هذا التجمّع.

هذه الإجراءات، مكّنت العزابة ومساعدتهم من التكفّل بعمليات الجمع والتوزيع في وقت قياسي، وأعدت لتلاوة القرآن حرمتها، وساعدت على المحافظة على الكسكس من الضياع، وساهمت في الحفاظ على نظافة المسجد.

- برمّج العزابة درسا توجيهيا في الصباح بين التلاوة وتوزيع الصدقات، ودرسا

آخر وقت توزيع الصدقات مساءً، استغلالاً لحضور ذلك العدد الهائل من المواطنين.

- يُحضر بعض الطلبة كتباً للمطالعة والمذاكرة يستفيدون منها عشيةً

وقت الفراغ.

- فرقة "العمّال" أصبحت شبه قارّة، تضمّ متطوعين بدون اعتبار

انتسابهم إلى مقبرة تلك الجمعة.

فيما يلي بعض إحصاءات الطلبة وما وزّع عليهم من اللحم، قيدها

إخوة فضلاء في هذه السنوات الأخيرة.

السنة	معدّل عدد الطلبة في الجمعة	ما ناب لكل واحد في الموسم	مجموع ما وزّع من اللحم في الموسم	ما يعادله من الشياه	معدّل عدد العامة في الجمعة
1998	763	28 لحمة	21.264 لحمة	445	
1999	788	27 لحمة	21.154 لحمة	441	
2002	703				
2003	684				
2005	728				
2006	807				
2007	865	25 لحمة	21.753 لحمة	453	750
2008	971	21 لحمة	20.536 لحمة	428	764
2009	974	22 لحمة	21.179 لحمة	441	805

3- مناسبات أخرى ذات علاقة بالمقابر:

أ- المعروف:

"المعروف" موسم خاص بالأموات الذين لم يُدفنوا في إحدى مقابر البلدة، لكونهم دفنوا في بلدان أخرى، أو لا يعرف على التحديد مواضع أضرحتهم.

يجري هذا الموسم مساء يوم الجمعة الأولى من شهر جوان. بعد صلاة العصر، ينطلق موكب من المسجد العتيق، يتقدمه بعض العزابة، للقيام بجولة يزورون فيها عددا من المقامات، مروراً بالمقابر الأربع، وانتهاء بمقام بُوعَمِيد.

يتمّ التجمّع الأوّل في الموقع الذي بُنيت فيه دار عشيرة آل خالد عام 1992. فيه يوزّع القرآن على حلق لتلاوة تَخْرُوبِينَ (جمع تَخْرُوبَتْ وهي نصف ثمن القرآن). من بين هذه الحلق مجلس يشرف عليه العزابة لتلاوة الحصة الأولى من أوّل البقرة إلى "لعلّكم تعقلون" الآية 241.

وعند نزول الموكب من بوعَمِيد تتحوّل الحلق إلى موقع يعرف بـ "جَارْ لَمَكَايَر" (بين المقابر)، في الركن الشمالي لمقبرة الشيخ حمو أو يوسف، ويلتئم الجميع. وبحضر العامة خارج مجلس الطلبة، تتلى سور الخاتمة والأدعية، وتوزّع الصدقات التطوعية بإشراف العزابة.

تعتبر هذه المناسبة قديماً عيداً محلياً، تنزّين فيه العرائس.

كان في الأصل ينادي عليها ليلة الجمعة بين المغرب والعشاء منادٍ مكلف من طرف العزابة، يطوف على البلدة انطلاقاً من المسجد، وهو يهتف بعبارات "أَشَا دَلَمَعْرُوفُ آيَاتُ رَبِّي، أَغْنَجَا تَايْدُورْت، أَشْرَبْ أُوهُو" أي: "غدا موسم المعروف يا أهل الله، الغراف في القدر، ويمنع أَشْرَبْنَا"¹¹.

آخر من جرت على يده هذه العادة طوافاً ومناداة هو ضيف الله زايددي الذي توفي عام 1992. أمّا الآن، فيقتصر على الإعلان بالمناسبة في المسجد العتيق، كما أنّ التجمّع حوّل إلى أروقة الشيخ باحمد.

ب- يوم الزيارة (أَزْيَارْتْ بالمزابية)

تنظم هذه المناسبة في يوم إثنين من شهر مارس، وتشتمل على ثلاثة مراسيم مستقلة. أورد هنا ماله علاقة بالمقابر:

- في الجولة الصباحية، بعد طلوع الشمس إلى منتصف النهار، يمرّ الموكب عبر مقبرة الشيخ بالحاج ومقبرة الشيخ باسه ليتوجّه إلى زيارة معالم الواحة. وعند الرجوع منها يختم الجولة بالمرور عبر مقبرة الشيخ حمو أو يوسف ومقبرة الشيخ باحمد، بعد التزول من بُوعَمِيد (مقام الشيخ أبي العباس أحمد الويليلي).

- بعد العصر، يلتئم مجلس قرآني في الموضع المعروف باسم "جَارْ لَمَكَايَر" (بين المقابر)، في الركن الشمالي لمقبرة الشيخ حمو أو يوسف، حيث تجري ختمة للقرآن، بإشراف العزابة وبحضر العامة. وبعد أن تنتهي الأدعية يتمّ توزيع الصدقات. وكانت في الأصل وجبات من طعام في قصاب يتحلّق حولها الطلبة على غمط مجالس المقابر مساء في القلم¹².

يعتبر هذا اليوم أيضاً موسماً محلياً تنزّين له العرائس.

حوّل هذا التجمّع الآن إلى صحن مقبرة الشيخ حمو أو يوسف.

ج- عشية العيدين:

كان ينعقد مساء العيدين مجلس لتلاوة القرآن في الصحن العلوي لمقبرة الشيخ بالحاج، وتوزّع فيه الصدقات.

ولأسباب أمنية، تحوّل المجلس إلى المسجد العتيق.

4- رأي بعض المشايخ حول تَنْوَبَاوِينَ:

ألقى على الشيخ عبد الرحمن بكلي سؤال نصّه: إذا كان الشخص فقيراً، فهل يجب عليه أن يؤدّي الصدقة من نوع تَنْوَبَاوِينَ مع أنّه محتاج أن يعطى له، لا أن يتصدّق هو؟"، فأجابه الشيخ قائلاً: "أثوبه يقال لها بالعربية الوقف. والوقف دين على من التزمه. يجب عليه أدائه سواء كان غنياً أو فقيراً (...) ولا يغني عنه أنّه محتاج يتصدّق عليه، لا أن يتصدّق هو على غيره. قال ﷺ: "خير الناس مؤمن فقير يعطي جهده"، وإلّا فما الفقير فقير الحسنات لا فقير المال (...)"¹³

أمّا الشيخ بيوض فيقول في الموضوع: "...وللناس في هذه البلاد اهتمام كبير بأمر الأوقاف وحرص شديد يفوق الوصف على أدائها في أوقاتها لمستحقيها... ذلك أنّهم يعتقدون أنّ ذلك حقّ واجب عليهم ودين في ذمتهم... وأنّ الآباء المحبّسين ينتظرون أطباق النور التي تأتيهم من الصدقات الجارية التي حبسوها... لذلك ترى الفقير منهم يحتاط لوقفه قبل وصول وقته ويدّخر له ما يؤدّيه به مهما تحمّل في ذلك من تضيق على نفسه. جازى الله المحسنين من المحبّسين والمنفذين أحسن جزاء..."¹⁴

أعتبرت تَنْوَبَاوِينَ في العرف العام وقفاً أبدياً يخرج به صاحبه أو ورثته مرّة كلّ عام، وهي معلّقة عادة بالعقارات، بحيث إذا بيعت أو استؤجرت، انتقل الوقف إلى المشتري أو المستأجر باتّفاق الطرفين.

لكن هذا النوع من الوقف هو حالياً مدار جدال ونقاش بين الفقهاء في مزاب، بين مجيز له ومحافظ عليه، وبين من يرى أنّ عدم تحديد المدّة والثلث يُدرّج في الجهالة.

ختاماً، لقد اتّضح لك، أخي القارئ، نفع تَنْوَبَاوِينَ اجتماعياً ودينياً واقتصادياً، فاعمل مخلصاً للحفاظ على هذا التراث العظيم. فإن كنت ممن يعتقد سلامة وقف تَنْوَبَاوِينَ من العيب، فاعمل على توسيع نطاقها من داخل القصر إلى الأحياء الجديدة، ليعمّ الأجر وينمو الخير في المجتمع، وإن كنت ممن يرى في وقف تَنْوَبَاوِينَ جهالة، فلا تحرم نفسك من الأجر، بل اجعلها صدقة تطوعية سنوية تلتزم بها وأنت حيّ قادر، دون أن ترهق ورثتك وأملاكك بها بعد وفاتك. المهم أن تشارك في موسم المقابر بما تطمئن إليه، وأن لا تكون عنصراً متفرجاً سلبياً.

خاتمة

لا شك أنّك، أخي القارئ، قد استفدت من هذه الدراسة الاجتماعية، وتعرّفت على مسائل كثيرة كنت تجهلها في موضوع حقوق الميّت على الأحياء، وحلّت لك ما كان يشبه الألغاز في مناسبات الموت، وأشبع فضولك فيما كان يجري أمامك من طقوس وعادات.

وددت لو كان البحث أوسع ممّا هو، خاصّة من الناحية التاريخية، ولكن قلّة المصادر وشحّ الوثائق، جعلتني أعتمد على ما عشته وعلى ما لاحظته، ثمّ على ما تفضّل عليّ الإخوان عند استفسارهم حول عدد من الجزئيات والتفاصيل.

ولا أنسى أن أشكر كلّ من ساعدني في هذا العمل بوثيقة أو معلومة، جازاهم الله عنّي خير الجزاء. إنّ التراث كثر المجتمع، ودليل وجوده، ومصدر إلهام له. علينا أن نتعاون وتظافر جهودنا للكشف عن هذا التراث، وصيانه

من الاندثار، واستغلاله لصالح الأجيال اللاحقة، فليس من يبدأ من الصفر كمن يضيف إلى صرحه العتيد لبنات جديدة.

حذار من التنكر لأصالتنا، والانسلاخ من ثقافتنا. لا تحكم على الشيء قبل تصوّر حقيقته. نعم للتحسين والتحديث، لا للعزوف والترك والتعطيل والتضييع.

ربّنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب، يا أرحم الراحمين، والحمد لله ربّ العالمين.

1- أبو اليقظان إبراهيم: ملحق لسير الشماخي، ص26.

2- محمد أيوب صدقي: السيرة تجسيد للسلوك المثالي، ص70.

3- فتاوى الإمام الشيخ بيوض، الجزء الثاني، ص623، 624.

4- أعلى هذا الجبل مقام الشيخ أبي العباس أحمد الوليلي الملقب بـ "بوعُميد". عاش في القرن الخامس الهجري.

5- بازشري أو باسشري تصحيف لبازكري. والمقصود به بازشري بن أيوب بن عدون أحد مشايخ بني يزقن القدماء.

6- مصليات المقابر في وادي مزاب، مصلى الشيخ باسه وأفضل في بني يزقن نموذجاً. دراسة أثرية، ص6.

7- يحيى بن عيسى بوراس: المصدر السابق، ص11.

8- نفس المصدر، ص7.

9- د. بالحاج معروف: العمارة الإسلامية - مساجد مزاب ومصلياته الجنازية، 179.

10- محمد أيوب صدقي: السيرة تجسيد للسلوك المثالي، ص75.

11- نبات شبيه بالسلق، وأكثر ما يستعمل مع مرق رأس الشاة.

12- محمد أيوب صدقي: المصدر السابق، ص93.

13- فتاوى البكري، القسم الثالث، ص113.

14- من خاتمة تقرير حرّره عندما كان رئيس مجلس عمّي سعيد، وقدمه لوزير الأوقاف أحمد توفيق المدني.

المصادر المكتوبة

1- د. بالحاج معروف: العمارة الإسلامية - مساجد مزاب ومصلياته الجنازية، 2007.

2- ش. بكير بن محمد الرشوم: الموجز في الجنائز، 1977.

3- ش. محمد أيوب صدقي: السيرة تجسيد للسلوك المثالي، 2003.

4- يحيى بن عيسى بوراس: مصليات المقابر في وادي مزاب - مصلى الشيخ باسه وأفضل في بني يزقن نموذجاً - دراسة أثرية.

5- يوسف بن بكير الحاج سعيد: تاريخ بني مزاب، الطبعة الثانية، 2006.

6- أرشيف المدرسة الجابرية بنين (بني يزقن).

فهرس الصور

الصفحة

1	الصورة رقم 1	أروقة الشيخ بامحمد	20
2	الصورة رقم 2	أروقة الشيخ باسه قبل ترميم 2006	23
3	الصورة رقم 3	صحن الشيخ حمو أو يوسف	27
4	الصورة رقم 4	الصحن العلوي في مقبرة الشيخ بالحاج	29
5	الصورة رقم 5	نموذج من المد والحثية	41
6	الصورة رقم 6	نموذج من النقاصة ونصفها وربيعها	42

فهرس الأشكال

1	الشكل رقم 1	مخطط أروقة الشيخ بامحمد	22
2	الشكل رقم 2	مخطط أروقة الشيخ باسه قبل 2006	24
3	الشكل رقم 3	الصحن العلوي في مقبرة الشيخ بالحاج	29
4	الشكل رقم 4	الصحن السفلي في مقبرة الشيخ بالحاج	30

فهرس المكتوبات

مقدمة

1	مقدمة	1
3	نبذة عن المقابر الأولى	3
4	الباب الأول: المقابر الحالية	4
4	أ- طبيعتها	4
4	ب- موقعها وحدودها	4
5	ج- نسبتها	5
6	د- أصحابها	6
8	هـ- تجهيز الأموات	8
10	و- الطريق إلى المقابر	10
12	ز- الصلاة على الميت	12
12	ح- الدفن	12
14	ط- التحليق والصدقة	14
15	ي- التعجيل بالدفن	15
16	ك- القراءة على الأموات	16
16	ل- توسيم القبر	16
18	م- زيارة المقابر	18
19	الباب الثاني: الأوقاف والتبرعات التابعة للمقابر	19
19	1- الفضاءات المعدة لتنفيذها	19
20	أ- أروقة الشيخ بامحمد	20

23	ب- أروقة الشيخ بأسه
27	ج- صحن الشيخ حمو أو يوسف
28	د- صحن الشيخ بالحاج
31	2- موسم المقابر
31	أ- توقيت موسم المقابر
33	ب- تحويل مراسيم المقابر من مكانها
34	ج- مجالس تلاوة القرآن
40	د- طبيعة الأوقاف والتبرعات في موسم المقابر
44	هـ- المستفيدون من الأوقاف والمعاريف
48	3- مناسبات أخرى ذات علاقة بالمقابر
48	أ- المعروف
49	ب- يوم الزيارة
49	ج- عشية العيدين
50	4- رأي بعض المشايخ حول تئوباوين
51	خاتمة
53	المصادر
54	فهرس الصور
54	فهرس الأشكال
55	فهرس المحتويات

